الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
جامعة 08 ماي 1945 قالمة
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها
Université 08 Mai 1945 – Guelma
Faculté: des lettres et langues

الرقم: .....
N° : .....

مذكـــرة مقدمـة لـنيل شـهادة
المـــاســـــتر
(تخصص: أدب جزائري)

مدينة تلمسان في العصر الوسيط من خلال النّثر

مقدمة من قبل:
حياة سرباح
تاريخ المناقشة: جوان 2016

فريدة زرقين	رئيـــــسًا	الرتـــــبة: أستاذ التعليم العالي	جامعة 8 ماي 1945م قالمة
أحلام عثامنية	مقررًا	الرتـــــبة: أستاذ مساعد –أ–	جامعة 8 ماي 1945م قالمة
العايش سعدون	ممتحنًا	الرتـــــبة: أستاذ مساعد –أ–	جامعة 8 ماي 1945م قالمة

السّنة: 1437هـ – 2016م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

بداية نحمد الله تعالى على توفيقه لنا لجني حصاد الدراسة

بهذه الشهادة قال تعالى: "وقل ربي زدني علما"

كما نتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذة المشرفة "أحلام عثامنية" التي لم تبخل علينا بإرشاداتها ونصائحها القيمة.

دون أن ننسى شكر كل من ساعدنا على إنجاز هذا العمل من قريب أو بعيد.

إهداء

" وقل ربي زدني علما"

أهدي هذا العمل إلى من جرع الكأس فارغا ليسقيني قطرة حب

إلى من كلّت أنامله ليقدم لنا لحظة سعادة

إلى من حصد الأشواك عند دربي ليمهد لي طريق العلم

إلى القلب الكبير "أبي"

إلى أول من نطق بها لساني

إلى من اعتمدت عليها في صغري

إلى شمعة متقدة تنير ظلمة حياتي "أمي"

إلى الأستاذة المشرفة تقديرا واحتراما " أحلام عثامنية".

مقدّمة

مقدّمة:

كانت المدينة على مرّ العصور مركز التناقضات والتفاعلات الحضارية المختلفة، فكانت نقطة التقاء وتبادل على مختلف الأصعدة، سواء السّياسية أو الثّقافية الاجتماعية، وقد شهدت تطوّرا ملحوظا منذ بداياتها إلى أن اتخذت طابعها الإجمالي، أما فيما يخص بلاد الجزائر، فقد عرفت ظهور عديد من المدن التي عبّرت عن كيانها، واستمراريتها، ولعلّ تلمسان أحد هذه الحواضر الجزائرية التي ازدهرت في عصر من العصور، وذاع صيتها في مشارق الأرض ومغاربها، وبخاصة في العصر الوسيط، الذي يُعدُّ مرحلة ذهبية في حياة هذه المدينة، حيث سجل هذا العصر ببلاد المغرب الإسلامي نشاطا مكثفا في مجال العلم والثّقافة، والتوسع السياسي، حيث ظهرت في هذه المدينة، مجموعة من الدول واستقر بها عدد كبير من الأعراق والأجناس، فكانت مركزا لحضارات مختلفة لذلك ارتأينا القيام بدراسة تاريخية، تخص هذه المدينة، وجعلها ضمن اهتمامات الرّحالة، حيث قدموا أوصافا عنها بالإضافة إلى الناحية السياسية والثقافية التي شهدتها هذه الأخيرة، فكان عنوان موضوعي موسوما بـ: **" مدينة تلمسان في العصر الوسيط من خلال النثر"**

تكمن أهميته في إعطائنا صورة كاملة عن مدينة تلمسان فقرّبها ورحل بنا عبر الزمن، حيث نستطيع أن نعيش الواقع الذي عاشه أهله من خلال معالمها الكبرى، وذلك بالاعتماد عن جملة من الكتب النّثرية نقلتنا إلى ماضي هذه المدينة، بالإضافة إلى معرفة السياسة التي كانت قائمة بها، وذلك من خلال معرفتنا للدول التي استقرت، واتخذت طابعها، فبرزت، وظهرت بها، بحيث جعلت من تلمسان قاعدة لملكها، والحديث عن دولة الزّيانيين الذين كان لهم الأثر الواضح في توسعها، ورقيها، وازدهار الحضارة بها، فكانت المدينة في عصرهم تضاهي حواضر المغرب الإسلامي مثل: بجاية، وفاس وغرناطة.

وكان اختياري للموضوع لعدّة أسباب من بينها:

- الأهمية البالغة لدراسة الجوانب التّاريخية والثّقافية لمدينة تلمسان، حيث سعى الدارسون إلى الكشف عن الدور البارز والفعّال لهذه الأخيرة، فقد كانت مركزا لملك عديد من الدول.
- مدينة حضارية راجت ثقافتها في أوساط المعمورة، وكانت تستقطب العلماء والأدباء من كلّ حدب وصوب، ممّا دفعني للبحث عن أوصاف هذه المدينة من خلال اللجوء إلى كتب الرّحلات بالإضافة إلى البحث عن الناحية السياسية بها، وبخاصة الدولة الزّيانية التي عرفت توسعا ملحوظا في مجال الثقافة، فظهرت بها العناصر الثقافية المختلفة مثل: الاحتفالات بالمولد النبوي، والمدارس، والمساجد، والزوايا ... فهذه المدينة تعدّ من المدن الجزائرية العريقة التي لا تزال تحتاج إلى المزيد من الدراسة والبحث.
- قلّة الدراسات المتعلّقة بهذه المدينة، فلم تنل حظّها من الدراسة على الرّغم ممّا كانت عليه، فقد كانت تحتل مكانة رفيعة، بين حواضر المغرب الإسلامي.
- محاولة إبراز أهمية هذه المدينة، وذلك من خلال استقطابها اهتمامات الرّحالة، فكانت ضمن المدن التي وصفوها، ونالت إعجابهم فتحدثوا عنها، وعن مراكزها الكبرى، وعن علمائها وأهلها.
- التّعرف على الدول التي اعتبرت تلمسان قاعدة لملكها، وإبراز مساهمة السلاطين والحكام الزّيانيين في تنشيط الحركة الثقافية بالمدينة.
- معرفة الأوضاع السّياسية القائمة بالمدينة، والتي كان لها تأثير على الحركة الثّقافية والعلمية.
- وإلى جانب كلّ هذا كان اختياري للموضوع رغبة في الاطلاع على جزء من تاريخ وحضارة مدينة جزائرية عبّرت عن كيان هذه الأمة، ومدى مواكبتها للدول الإسلامية، فعلى الرغم من النكبات والأزمات التي خلفها الاستعمار لاحقا، إلا أنّه ينبغي التنويه بأنّ تلمسان قد كانت مدينة التاريخ والحضارة.

تتمحور الإشكالية التي نطرحها ضمن هذه الدراسة حول إبراز دور الرّحالة في إعطائنا أوصافا للمدينة، ومدى تناول الكتب النّثرية المختلفة لسياسة وثقافة المدينة وذلك من خلال التعرف على ملامح المدينة في كتب الرّحلات، ومعرفتنا للسياسة والثقافة القائمة بها، من خلال جملة من المصنفات النّثرية ، ولمناقشة هذه الإشكالية، وجب علينا الإجابة على عدّة تساؤلات فرعية أهمها:

- كيف كانت تلمسان؟ وكيف تطوّرت عبر الزمن؟
- وكيف كانت الأوضاع السّياسية بها؟
- وتحت أي حكم كانت تلمسان قبل الزّيانيين؟
- وكيف صلت إلى حكم الزّيانيين؟ وما هي العوامل التي ساعدت على رقيّها وتطورها؟
- ما هي المجهودات التي بذلها السلاطين في تشجيع الثقافة بها؟
- ما هي أهم المظاهر الثّقافية التي كانت تسري في المدينة؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، اتبعنا خطة مكوّنة من مدخل وفصلين تتصدّرهم مقدّمة وأخيرا خاتمة.

تطرقنا في المدخل إلى تعريف المدينة، وخصائصها، وعوامل نشأتها واختلاف أوصاف الرّحالة لها عبر الزمن.

أما الفصل الأول فخُصص للنّاحية السيّاسية بتلمسان، تعرضنا فيه إلى تلمسان منذ الفتح الإسلامي، حتى قيام دولة بني زيان، ثمّ تحدثنا عن أصل الزّيانيين وعن توليهم الحكم، ودور يغمراسن في بروز الدولة الزيانية، والمظاهر السياسية لسلطتهم، وأشهر حكامها وأسباب سقوطها.

أما الفصل الثاني والأخير، فذكرنا فيه الناحية الثقافية لتلمسان، ومدى مساهمة السلاطين في تشجيع العلم، وبعض المظاهر الثقافية التي كانت سائدة في هذه المدينة، وأُنهي البحث بخاتمة لأهم النتائج المتوصل إليها.

أما المنهج المتبع في هذا البحث فكان المنهج التاريخي حيث اعتمدنا على ما تيسر من مصادر، ومراجع ذات صلة بالموضوع، في تتبع التطور الذي مرّت به المدينة في جميع النواحي.

ولا أنفي وجود بعض الصعوبات التي قد تواجه أي باحث في كتابة تاريخ الجزائر بالإضافة إلى الصعوبة الكامنة في ضبط تاريخ دولة بأكملها، فوردت في الكتب بإسهاب كبير، ممّا صعب علينا الوضع، وكانت فيها الأحداث متداخلة جدّا ومتشابكة بالإضافة إلى عدم فهمي لبعض معاني الكلمات، والسجع المفرط في كتابات القدامى، الذي كان دائما ما يبعدني عن فهم المعنى، إضافة إلى قدم بعض طبعات الكتب ممّا صعب فهمها، لكن هذا لم يكن بالعائق الكبير أمام بحثي.

وفي سبيل إنجاز هذا البحث استعنت ببعض المصادر التي كانت لها صلة وطيدة بالموضوع نذكر منها:

- تاريخ ابن خلدون لعبد الرحمن ابن خلدون.
- بغية الرواد في ذكر علماء بني عبد الواد ليحي ابن خلدون.
- تاريخ بن زيان، ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان للتنسي.
- باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة بني زيان لمحمد بن رمضان شاوش.
- تاريخ الدولة الزّيانية لابن الأحمر.

وهي كتب ذات قيمة عظيمة، استطاعت إلمامنا بتفاصيل هذه المدينة المختلفة سواء من ناحية أوصافها الجغرافية، أو من الناحية السياسية والثقافية.

وفي الأخير أتوجه بالشكر إلى الأستاذة المشرفة: أحلام عثامنية التي وافقت على هذا الموضوع، وعلى الإشراف عليه، وعلى ملاحظاتها القيّمة، وإرشاداتها التي استفدت منها كثيرا، وأرجعتني إلى الطريق الصحيح في كثير من الأحيان، وأرجوا من المولى عزّ وجلّ أن يجعلها من أهل العلم الكبار، فيرفع درجاتها في جنة الرضوان، ويجعلها قبلة ومصدرا يعود إليه المتطلّع للعلم، فعلى الرّغم من صغر سنها، أخذنا منها كثيرا، وتعلّمنا منها المنهاج الصحيح الذي نسير عليه في مجال البحث العلمي، فكما يقال " يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر" وأرجوا أن تجعل ممن سيرفعهم الله إليه يوم القيامة، حيث قال عزّ وجل « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعلمون خبير».

مدخل:

تلمسان في أدب الرّحلة

قبل الحديث عن مدينة تلمسان، وعن معالمها الكبرى، والإحاطة بها من جوانبها المختلفة، وجب علينا أولا إزالة الغبار عن مصطلح المدنية، ومعرفة عوامل نشأتها، وظهورها في مغربنا العربي بصفة عامة وفي الجزائر بخاصة وبالتحديد تلمسان تلك المدينة العريقة التي وجب علينا دراستها واتخاذها كمشروع للبحث والتحليل.

I– مفاهيم عامة حول المدينة:

1–تعريف المدينة:

أ– لغة:

المدينة مأخوذة من الفعل "مَدَنَ بالمِكَانْ أَقَامَ بِهِ، فِعْلٌ مُمَات، و منه المِدَنِيَةُ، وَ هِيَ فَعِيْلَةٌ وَ تَجْمَعُ عَلَى مَدَائِنْ بالهمز وَمُدّنٍ وَ مُدُنْ بِالتَخْفِيف وَ التَثْقِيل، وَ فِيهْ قول آخر، أنه مَفْعِلَةٌ مِن دِنْتُ أي مُلِكتُ قال ابن بري لو كانت الميمَ في مدينة زَائِدة لَمْ يَجُر جَمْعُهَا على مُدُنٍ و فُلَانٌ مدَّن المدَائنَ، كما يقال مَصَّرَ الأَمْصَارَ، قال وسئَل أبو عليّ الفَسَويُّ عَنْ هَمْزَةِ مدائن فَقَالَ فيه قَولان من جعله فِعيلة من قولك مَدَنَ بالمكان أَيْ أقام بِهِ، هَمزَهُ ومن جعله مَفعِلة من قولك دِينَ أي مُلِكَ لم يهمزه كما لم يهمز معايش "[1]

فالمدينة من الفعل مدن بمعنى الملك أو الإقامة.

و"المدينة الحِصْنُ يُبْنَى في أَصطمّةِ الأَرْض، مشتق من ذلك، وكل أرض يبنى بها حصن في أصطمَّتِها الأرض، فهي مدينة والنسبة إليهَا مَدِينّي والجمع مَدَائِنُ ومُدُنُ، قال أبو سيده: ومن هنَا حَكَمَ أَبُو الحَسَنْ فِيما حكاه الفَارسي أن مَدِنية فَعِيْلةَ. الفَراء وغيره: المدينة فَعِيلةَ تَهْمَزُ في الفَعَائِل لأن الياء زَائِدَة، ولا تهمز يَاء المعايش لِأَنَّ اليَاء أَصْلِيَّة. والمِدْنَيَةُ: اِسْم مَدِينَة سَيِّدِنَا الرَّسُوْل –صلى

[1] ابن منظور الافريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د. ط)، (د. ت)، 402/13.

الله عليه وَسَلَّمْ–خَاصَةً غَلَبَتْ عَلَيْهَا تفخيما لَهَا شَرَّفَهَا الله وَصَانَهَا"[1] فالمدينة هي البناء والصرح العظيم من الأرض، وقد نسبت إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم.

"وإذا نُسِبَتْ إلى المِدِينَة فالرجل والثَّوْب مَدَنِيٌّ، وَالطَّيْرُ نَحْوَه مِدِينِيٌّ، لَا يُقَالُ غَيْرَ ذلك. قال سبويه: فَأَمَّا قَوْلهُمْ مَدَائِنِيٌّ فَإِنَّهُم جَعَلُوا هذا البناء اسما للبلد، وحَمَامة مَدِينِيَّة وجَارِيَّة مَدَينَيِّة ويقال للرجل العَالِمُ بِالأمر الفَطِنِ: وهو ابن بَجْدتها وابن مَدِينَتِهَا وابن بَلْدَتِهَا وابن بَعْثَطهَا وابن مَرْمُورِهَا قال الأخطل:

رَبَتْ وربَا في كرْمِها ابْنُ مَدِينَةٍ يطل على مسحاته يتركَّلَ"[2]

فهي تنسب إلى الإنسان والأشياء، كما تدل على الفطانة وغيرها.

أمَّا عند الرازي فهي من "(مَدَنَ) بِالمكَانْ أَقَامَ بِهِ وَبَابُه دَخَلَ ومنه (المِدِيْنَةُ) وجمعها (مَدَائِن) بالهَمْزَة و(مُدْنٌ) و(مُدُنٌ) مخفَّفا ومثقَّلا، فَقِيل هي من دَنَيْتُ أي مُلِكتُ، وفلان (مَدَّن) المِدائن (تمدينا) كما يقال مصَّر الأمصار وسَألت أبا عليّ الفَسَويّ عن هَمْز مدَائِن فقال من جعله من الإقامة هَمَزَهُ، ومَن جعله من المُلْك لم يهمزه كما لا يهمزُ مَعايِش، والنسبة إلى مدينة الرَّسول –صلى الله عليه وسلَّم– (مَدَنِيّ)، وإلى مدينة المنصور (مديني)، وإلى مدائنَ كسرى (مَدَائنِيّ) للفرق بينهما لا يختلط، ومدين قرية شعيب عليه السلام"[3].

فالمدينة من خلال هذا التعريف هي مكان الإقامة وهو نفس ما ذهب إليه ابن منظور، والمدينة في المعجم الوسيط "(مَدَنَ) فلان مدونا أتى المدينة، (تَمَدَّنَ) عَاشَ عِيشَةَ أَهْل المدن، وأخذ بأسباب الحَضَارَة والمدَائِنَ: بَنَاهَا (تَمَدِيَنَ): عاش عِيشَةَ أَهْلِ المدُن وتنعَّم، وَأَخَذَ بأَسباب الحضارةِ.

(المدينةُ): الحضارة واتساع العمران.

---

[1] المصدر نفسه، 402/13.

[2] المصدر نفسه، 13/ 403.

[3] محمد أبي بكر عبد القادر الرازي، معجم الصحاح، تح: أحمد إبراهيم زهوة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د. ط)، 2005، ص 300.

(المدينةُ): المِصْرُ الجامعُ. ج (مدائنُ) ومُدُنٌ، واسم يَثْرب مَديْنَة الرَّسول –صلى الله عليه وسلَّم– غلبت عليها"[1] ومن هنا فقد عرفنا معاني مغايرة للمدينة فلم تعد تعنى الإقامة فقط بل الأخذ بأسباب الحضارة والتطور العمراني.

ب–اصطلاحا:

تناولت المصادر المختلفة تعريفات للمدن والأمصار لعلّ أهمها ما جاء به ابن خلدون فهو يرى أنّ: "المدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة. وبناء كبير، موضوعة للعموم لا للخصوص، فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التّعاون، وليست من الأمور الضرورية للنّاس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم إليها اضطرارا بل لابدّ من اكرامهم على ذلك وشوقهم إليه مضطهدين بعصا الملك أو مرغبين في الثواب والأجر الذي لا يفي بكثرته إلّا الملك والدولة"[2].

يرى ابن خلدون أنَّ المدن هي البناء العظيم والكبير، وهي ليست بالملك الخاص بل هي عامة، وتحتاج إلى قيامها جملة من القيم التي تقتضيها الضرورة الاجتماعية، و"المدنية هي حقيقة مرئية في مظهر الأرض من حيث الكثافة السّكانية، والكتلة البنائية والحيثية الإدارية"[3].

إذا فالمدن هي تطور حاصل في الأرض تشكله الكثافة السّكانية، وتجمّع النّاس والعمران، "والمدينة تاريخيا تعد وحدة تشكيلية قديمة خبرها المجتمع منذ زمن يرجع إلى سبعة آلاف سنة، فهي إذن أصلية"[4].

من هذا يمكننا القول إنّ المدينة ليست بحديثة العهد بالإنسان بل هي عريقة تضرب في عمق التاريخ تعود إلى زمن بعيد.

---

[1] إبراهيم مصطفى حسن الزيات وآخرون، المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية القاهرة، ط4، 2004، ص 409.

[2] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د، ط)، 2011، ص 427.

[3] مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد للنشر، العراق (د. ط) (د.ت) ص 15.

[4] المرجع نفسه، ص 15.

ومن خلال التعاريف السابقة نخلص إلى أنّ المدن هي تشكيلة من الأرض اقتضاها التجمع الإنساني، وهي قديمة ترجع إلى أزمنة غابرة فهي ليست حديثة العهد.

تعدّ المدينة قديمة الظهور، فهي ليست حديثة العهد بالإنسان "وعليه ليست المدينة بخبرة من التفكير الإنساني إنها قد جاءت كما يعتقد بعضهم نتيجة للثورة العلمية التي نبتت بذورها من أكثر من قرن بل هي خبرة قديمة"[1] ومن هنا كانت المدينة قديمة تعود إلى أزمنة غابرة قدم الانسان ذاته، أي أنّها لم تكن نتيجة الثورة العلمية أي ليست حديثة العهد بالإنسان ولا محصلة التقدم العلمي ولا شكلا تطوريا جديدا.

2- خصائص المدينة:

تُعدُّ المدينة مركزا للتجمّع، وعنصرا من عناصر الحضارة، وهذا ما جعلها تتميّز بجملة من الخصائص: "فالمدينة بوصفها القطب الدائر لحركة الإنتاج والتوزيع والتبادل الثقافي والاقتصادي، وملتقى للتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية، وهي الخلية الحية الأساسية في حضارة كل مجتمع بشري في الماضي والحاضر"[2] فالمدن هي مكان تجمع الأنشطة المختلفة، وهي صورة عن حضارة وتقدم مجتمع معين، وهي مركز للنشاطات المختلفة التي يمارسها الانسان في شتى مجالات الحياة، وهي المرآة العاكسة للحضارة، والوسيلة المثلى لتحقيق أهداف الانسان، واحتياجاته "فالمدينة هي نتاج لجمهور الانسان، ترتبط ارتباطا عضويا بطبيعته الساعية نحو الحرّية، مما تجعلها خير شاهد على منجزاتها الثقافية الكبرى التي حققها بداخلها واكتسب منها أسس استمرارها، فهي إذن وحدة رئيسية تمثل الخلق الأصلي للجمهور"[3] فالمدينة إذن تعطينا صورة عن طبيعة الانسان التي تسعى لتغيير الأوضاع وتطمح إلى الحرية، و قد اعتبرت منجزاتها الكبرى صورة عن تطلّعات الأفراد، وطموحاتهم فقد رسمت المدن للإنسان طريقه ووضحت له معالم أحلامه الكبرى، فعمل بها على تحقيق كلّ ما أراده، وذلك عن طريق تطوير المدن ثقافيا.

---

[1] المرجع السابق، ص 15.

[2] إسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د. ط)، 1984، ص 7.

[3] مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، ص 16.

3- عوامل نشأة المدن:

تُعدُّ المدن البناء العظيم والصرح الكبير من الأرض وتساعد في نشأتها وتطورها جملة من العوامل فكما يرى ابن خلدون أنّ:" تشييد المدن إنّما يحصل باجتماع الفعلة، وكثرتهم وتعاونهم، فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة، من أقطارها وجمعت أيديهم على عملها وربّما استُعين في ذلك في أكثر الأمر بالهندام الذي يضاعف القويّ والقدر في حمل أثقال البناء لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمخّال"[1].

فتشييد المدن يحتاج إلى التعاون بين أصحاب المدينة كما يحتاج إلى الآلات والأجهزة اللازمة للبناء. يرى ابن خلدون أن من عوامل نشأة المدن التعاون فيقول: "حاجة البناء إلى التعاون ومضاعفة القدر البشرية، وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام لما قلناه يحتاج إلى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة إلى أن تتم"[2] أي أن التعاون هو السبيل الأمثل لتنمية القدرة البشرية واستثمارها، حيث تسعى إلى تأسيس مدن، وهياكل عظيمة يصعب تخريبها لأنّها عبارة عن جهد وقوة مجموعة من الأفراد فلا يسهل تخريبها.

يقرّ ابن خلدون بقوة المدن والأبنية التي تتم بفضل التعاون، فيقول في ذلك: "ويشهد لذلك أيضا أن نجد آثار كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها مع أنّ الهدم أيسر من البناء بكثير لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم والبناء على خلاف الأصل، فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا أن القدرة التي أسّسته مفرطة القوة وأنها ليست أثر دولة واحدة"[3] فمنجزات الإنسان العظيمة تتم عن قدرته وتمكّنه فيعجز هدمها.

كما يرى، أيضا، أنّ من عوامل نشأة المدن، هو مظاهر الاستقرار و الترف، فتكون بذلك القوة المالية والأمن أحد أهم العوامل لظهور ونشأة المدن فيقول هذا الأخير: "اعلم أن المدن قرار يتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل

---

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص 429.

[2] المصدر نفسه، ص 431.

[3] المصدر نفسه، ص 431.

للقرار ولما كان ذلك القرار والمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق"[1] ومن هنا فحصول المدن لا يحصل إلا باستقرار الأفراد وتمتعهم بمظاهر الترف، فيتوجب بذلك الأفراد إلى صناعة المنازل، ومن شروط نشأتها أن يحمي فيها الأشخاص مكان إقامتهم، وأن تكون منازلهم قريبة من مراكز الحياة كالماء مثلا وذلك لتسهيل عيشتهم، فوجب أن تكون المدن محميّة تجلب المنافع لأصحابها ويقول كذلك: "فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار وأن يكون وضع ذلك في متمنِّع من الأمكنة إمّا على هضبة متوعِّرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها، إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها "[2] فمن عوامل نشأة المدن وتطورها، أن تتوفر لها مجموعة من العوامل التي تحميها، وتزيد من عمرها، وتحفظ بقاءها وتجلب لها المنافع الكثيرة والخيرات الوفيرة، فعوامل نشأتها، كما يرى ابن خلدون هو أن تُحمى هذه المدن بواسطة سياج، وأن تكون في موضع وعر يصعب على الأعداء الوصول إليها وأن تكون قريبة من نهر أو بحر فهذه العوامل تزيد من عمرها وبقاءها، كما يرى وجوب تتوفر المدن على مرافق الحياة الضرورية، حتى يضمن بذلك استمرار وبقاء الأفراد بها "ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المرعى لسائِمتهم، إذ صاحب كلّ قرار لا بدّ له من دَوْجَن الحيوان للنّتاج والضّرع والرّكوب ولابدّ لها من المرعى فإذا كان قريبا طيبا كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بُعْده ومما يراعى أيضا المزارع فإن الزروع هي الأقوات ... والخشب أيضا ضروريّ لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضروريّاتهم، و قد يراعى أيضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية"[3] يجب أن تتوفر لظهور المدن ونشأتها مجموعة من العوامل تتضمن بقاءها واستمرارها وهي ما تقتضيه شروط الحياة، فيجب أن تكون هذه المدن قريبة من المراعي والمزارع التي تجلب الأرزاق لأصحابها، وقريبة من

---

[1] المصدر السابق، ص 432.

[2] المصدر نفسه، ص 433.

[3] المصدر نفسه، ص 434.

الغابات لكي يستفيد الأفراد من خشبها سواء في الشتاء أو في مستلزمات البيوت، كذلك قربها من البحر للاستفادة من ثرواته.

4- المدن في المغرب:

يرجع تأسيس المدن في المغرب العربي إلى أزمنة قديمة جدّا "عرفت البلاد المغاربية تأسيس المدن منذ أواخر الألف الثانية قبل ميلاد المسيح -عليه السلام-على أقل تقدير وكذا في عهد ملوكها الأهالي الذين ساهموا في نشر الحياة المدنية، لكن المدن عرفت تطورا وانتشارا واسعين أثناء الاحتلال الروماني، فقد عدَّ بعضهم أزيد من خمسمائة مدينة يسكنها ثلث السكان الذين يعدّون ما بين ستة أو سبعة ملايين مواطن" [1]

فالمدينة المغربية لها جذور قديمة تضرب في عمق التاريخ، وتعود إلى أزمنة بعيدة، فعهد الإنسان المغربي بالمدن لم يكن حديثا لأنها ظهرت عنده حتى قبل الفتح الإسلامي:" أمّا المدن المغربية المعروفة لدينا فهي المدن التي بنيت في العصر الإسلامي أو التي أحياها المسلمون"[2].

ونحن بصدد دراسة أحد المدن المغربية التي تُعدُّ جزءًا من حضارة الإسلام، ومعلما من معالمه الكبرى.

يرى ابن خلدون في أنّ:" المدن والأمصار بإفريقية والمغرب قليلة والسّبب في ذلك أنّ هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام، وكان عمرانها كلّه بدويّا ولم تستمّر فيه الحضارة حتى تستكمل أحوالها والدول التي ملكتهم من الافرنجة والعرب لم يطل ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها. فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها فكانوا إليها أقرب، فلم تكثر مبانيهم وأيضا فالصّنائع بعيدة عن البربر لأنهم أعرق في البدو والصّنائع من توابع الحضارة، وإنما تتم المباني بها فلابد من الحذق في تعلمها. فلمّا لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوق إلى المباني فضلا عن

---

[1] محمد الهادي جاريش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائر للطباعة، (د.ط)، (د.ت)، ص 212.

[2] إسماعيل العربي، المدن المغربية، ص 7.

المدن"[1]. لم يعرف المغرب العربي تطوّرا للمدن لأنّه كان مجتمعا بدويا بربريًّا لم يعرف أساليب الصناعة والحضارة.

ويقول ابن خلدون أن سكان المغرب "أهل عصبيَّات وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والأنساب والعصبيّة أجنح إلى البدو وإنّما يدعو إلى المدن الدّعة والسكون ويصير ساكنها عيالا على حاميتها فتجد أهل البدو لذلك يستكنفون على سكنى المدنية أو الإقامة بها فلا يدعو إلى ذلك إلى الترف والغنى وقليل ما هو من النّاس"[2].

ومن هنا كانت بلاد المغرب لا تعرف كثير من المدن لأنّ أهلها سكان بربر تكثر فيهم العصبية، وهم ميّالون إلى عيشة البدو فلا تروقهم عيشة أهل المدن وحضارتها.

ويقول أيضا " كان عمران إفريقية والمغرب كله أو أكثره بدويّا أهل خيام وطواعن وقياطن وكنن في الجبال وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصارا ورساتيق من بلاد الأندلس والشَّام ومصر وعراق العجم وأمثالها لأنّ العجم ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتباهون في صُراحَتها والتحامها إلّا في الأقل وأكثر ما يكون سُكْنى البدو لأهل الأنساب لأنّ لحمة النسب أقرب وأشدّ فتكون عصبيّته كذلك وتنزع بصاحبها إلى سُكنى البدو والتّجافي عن المصر الذي يذهب بالبسالة ويصيّره عيالا على غيره"[3].

يرجع ابن خلدون هنا قلّة مدن المغرب وأمصاره إلى طبيعة البدوي أو الرجل البربري المغربي الذي لا تروقه عيشة المدن والذي تسكنه الغيرة على نسبه. لكن هذا لا يعني أنّ المغرب العربي لم يعرف المدن أولم يعهدها من قبل إلّا في فترة الفتح الإسلامي، لأنّ عهد الإنسان المغربي بالمدينة قديم قدم الإنسان عينه، فالمغرب العربي كان مركزا لحضارات مختلفة عرف تطوّرا عمرانيا يشهد له التاريخ بذلك فعرف المغرب المدينة، منذ القدم، وكانت الآثار الرومانية والفينيقية وغيرها خير دليل على هذه الحضارة،

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص 446.

[2] المصدر نفسه، ص 446.

[3] المصدر نفسه، ص 446.

أمّا فيما يخص المدينة الإسلامية في المغرب فقط عرفت هي الأخرى تطوّرا ملحوظا، وكانت المدن المغربية أحد أهم بؤر العلم والثقافة والتطور الاجتماعي والاقتصادي، وهذا ما سنعرفه لاحقا.

لقد تطرقنا سابقا إلى المدن بصفة عامة، وعوامل نشأتها وازدهارها، كما كانت لنا المامة بسيطة حول نشأة المدن المغربية، ولما كانت تلمسان أحد هذه المدن المغربية بصفة عامة والجزائرية بصفة خاصة، ولما تحمله هذه الأخيرة من أهمية بالغة ومعا لم أثرية كبرى، وملتقى لأهل العلم والأدب، كانت موضوع دراستنا وبحثنا. وقبل التوغل في جذور وأعماق هذه المدينة وجب علينا أولا معرفة تلمسان ولو بصورة بسيطة، ثمّ بعد ذلك نتناولها بالدراسة والتحليل من خلال جملة من النصوص النثرية لمجموعة من المؤلفين الذين تحدثوا عنها فكانت هذه الأخيرة من إحدى مواضيعهم.

II- تلمسان في أدب الرّحلة:

1- التعريف بتلمسان من خلال المعاجم:

تناولت معاجم البلدان تعريفات وتحديدات لبلدان مختلفة، فكانت من بينها مدينة تلمسان التي اعتنوا بوصفها وذكروا معالمها، فهناك من تحدث عنها بقوله: "تلمسان بكسرتين، وسكون الميم، وسين مهملة، وبعضهم يقول تنمسان، بالنون عوض اللام، بالمغرب، وهما مدينتان متجاورتان مسَّورتان، بينهما رمية حجر، احداهما قديمة والأخرى حديثة والحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب، واسمها تافرزت، فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس، واسم القديمة أقادير يسكنها الرعية، فهما كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر، ويكون بتلمسان الخيل الراشدية لها فضل على سائر الخيل، وتتخذ بها من الصوف أنواعا من الكنابيش لا توجد في غيرها، ومنها إلى وهران مرحلة، ويزعم بعضهم أنه البلد الذي أقام به الخضر عليه السلام، الجدار المذكور في القرآن، سمعته ممن رأى هذه المدينة"[1].

[1] شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (د. ط)، (د.ت)، ص 44/2.

تلمسان إحدى مدن المغرب العربي، سكنها فيما قبل ملوك المغرب، وتوجد في هذه المدينة العديد من الخيرات كالصوف وغيره، وتعتبر بوابة للعبور نحو وهران، ومنهم من يقول أنها من الأمكنة التي أقام بها الخضر، والله أعلم، بما تكون هذه الأخيرة لأنّنا وجدناها هكذا في معجم البلدان للحموي.

أما يحي الشامي فقد أعطانا صورة بسيطة عن تلمسان، وعن عدد سكانها، وعن حضارتها ومعالمها الأثرية "مركز ولاية تلمسان، عدد سكانها 16 ألف نسمة، ازدهرت أيام المرابطين وكانت مركز العلوم الدينية الفقهية والكلامية، وكانت عاصمة بني عبد الواد في القرون المتوسطة فيها العديد من المساجد الأثرية، وهي قريبة من البحر المتوسط في أقصى الجنوب الغربي من البلاد وعلى الحدود الجزائرية المغربية وإلى الجنوب من وهران تحيط بها إلى جهة الجنوب سفوح جبال الأطلس، وهي غنية بالجنائن والكروم والبساتين والواحات فيها جامعة علمية ومعاهد علميّة أخرى ودينية وتشتهر بصناعة المفروشات والمنتوجات الصوفية والحريرية والقطنية واستخراج الزيوت النباتية والأسمدة والمنظفات"[1]. فتلمسان من خلال هذين الرأيين هي مكان يقع في المغرب الأوسط ازدهرت أيام بني عبد الواد. احتوت على العديد من مراكز الحضارة كما توفرت فيها كثيرا من الخيرات والمعاهد العلمية والدينية.

أعطانا هذين المعجمين صورة بسيطة عن تلمسان القديمة والحديثة، لهذا ارتأينا أخذ معجم قديم وآخر حديث لنتعرف على تلمسان من وجهتين مختلفتين قبل أن نتوغل فيها بالدراسة من خلال المؤلفات النثرية.

كانت مدينة تلمسان موضوعا شيّقا وجديرا بالذكر اخترناها كموضوع لدراستنا فدرسناها من جوانبها المختلفة، وسنتناولها الآن دراسة وتحليلا من خلال الكتب النثرية وكما وصفها الرّحالة العرب.

2- تلمسان كما وصفها الرّحالة العرب:

أ- ابن حوقل:

وصف ابن حوقل مدينة تلمسان من خلال قوله: " هي مدينة أزلية، ولها أنهار جارية وأرحية عليها

---

[1] يحي الشامي، موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1993، ص 162.

فواكه ولها سور من أجر حصين منيع، وزرعها سقي وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة"[1]

وطئت قدمي ابن حوقل أرض تلمسان فرأى فيها العراقة والأصالة، وما تحتويه هذه الأخيرة من ثروة جسدتها الأنهار الجارية والزروع.

ب- الإدريسي:

تحدّث الإدريسي عن مدينة تلمسان، وعن معالمها وسكانها فقال: "وهي مدينة أزلية ولها سور حصين متقن الوثاقة، وهي مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور، ولها نهر يأتيها من جبلها المسمى بالصخرتين وعلى هذا الجبل حصن بناه المصمودي قبل أخذه تلمسان ولا تزال المصامدة [2] قاطنين به إلى أن فتحوا تلمسان، وهذا الوادي يمر في شرقي المدينة وعليه أرجاء كثيرة، وما جاورها من المزارع كلها مسقى وغلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمة وخيراتها شاملة ولحومها شحيمة سمينة وبالجملة إنها حسنة لرخص أسعارها ونفاق أشغالها ومراج تجاراتها"[3].

قدم الادريسي صورة عن تلمسان فوصفها وأعطانا هيكلها لعام فتحدث عن خيراتها وأنهارها وازدهار التجارة بها، ثم أضاف قائلا: "ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب وهي على رصيف للداخل والخارج منه لابد منها والاجتياز بها على كل حال"[4] فهو يرى أنّ تلمسان تتوسط المدن لابدّ للداخل والخارج من اجتيازها، فهي بذلك تحتل مكانة مرموقة بين المدن الجزائرية.

ج- مؤلف مجهول:

قدم هذا المؤلف الذي نجهل اسمه أوصافا لمدينة تلمسان وما يوجد بها "مدينة عظيمة قديمة فيها آثار كثيرة أزليّة تنبئ أنها كانت دار مملكة لأمم سابقة، وهي في سفح جبل أكثر شجره الجوز،

---

[1] أبو القاسم ابن حوقل النصّيبي، صورة الأرض، دار صادر، بيروت، ط2، 1937، 88/1.

[2] المصامدة: هم من ولد مصمود بن يونس بربر فهم أكثر قبائل البربر وأوفرها. ينظر: تاريخ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000، 265/6.

[3] الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، (د.ط) (د.ت)، 248/1.

[4] المصدر نفسه، 250/1.

وكان لها ماء مجلوب من عمل الأوائل من عيون يسمى بوريط، بينهما وبين المدينة نهر يسمى سطفسيف وكانت تلمسان دار مملكة زناتة وحواليها قبائل كثيرة من زناتة وغيرهم من البربر"[1].

قدم صاحب كتاب الاستبصار صورة عن تلمسان ذات الآثار الكثيرة التي توحي بالمكانة العالية الرفيعة التي احتلتها، فتحدّث عن معالمها الكبرى، وخيراتها كالنهر، ثمّ ذكر القبائل المحيطة بهذه المملكة:" لها قرى كثيرة وعمائر متصلة، ومدن كثيرة وفي الجنب من مدينة تلمسان قلعة منيعة كثيرة الثمار غزيرة المياه والأنهار، ويتصل بها جبل تاورناية، وهو جبل كبير مغمور فيه القرى الكثيرة والعمائر المتصلة.

وفي الجنوب من مدينة تلمسان قرية كبيرة تسمى باب القصر فوقها جبل يسمى البغل كثير الخصب والعمارة، ينبعث تحته نهر سطفسطيف، ويصب في بركة عظيمة منقورة من حجر صلد من عمل الأولين، لوقوعه في تلك البركة خرير شديد هائل على مسافة أميال، ثمّ يخرج من تلك البركة بمحكة مدبرة إلى موضع يسمى المهماز"[2].

وصف المؤلف القرى المجاورة لتلمسان، وما يحيط بها من أنهار وجبال، ثمّ تحدّث عن النهر العظيم الذي يمد المدينة بالماء ويصب في البركة المصنوعة من الحديد الذي عمله الأولون بحيث يسمع صوته من أميال ويصب في تلك البركة.

د– العبدري:

تحدّث العبدري عن الفاقة والمجاعة التي حلّت بأهل تلمسان جراء الطاعون، فوصفها قائلا:" تلمسان بلد حلت به رمانة الزمان وأخلت به حوادث الحدثان، فلم تبقى به علالة ولا تبصر في أرجائه للضمآن بلالة"[3]. خُربت تلمسان جراء هذه الآفة التي حلّت بها وحولتها إلى مدينة يصعب العيش فيها مما أدى إلى تغيير طبائع أهلها، لكن هذا لا يمنع من وصف جمال المدينة فتحدث عن

---

[1] مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق (د.ط) (د.ت)، ص 176.

[2] المصدر نفسه، ص 177.

[3] محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، تح. سعيد بوفلاقة، منشورات بونة، عنابة، 2007، ص27.

خيراتها قائلا: "وتلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر، مقسومة بينهما سور، ولها جامع عجيب مليح متسع، ولها أسواق قائمة، وبظهرها في سند الجبل موضع يعرف بالعباد، وهو مدفن الصّالحين وأهل الخير وبه مزارات كثيرة، ومن أعظمها وأشهرها قبر الشيخ الصالح أبو مدين شعيب"[1] فهي مدينة جميلة زادتها السهول روعة كما أنّ معالمها قد أثرت في جمال المنطقة، ولها العديد من المزارات فهي مكان لأهل العلم والخير.

هـ- النميري:

وصف النميري تلمسان فتحدث عن الآثار التي تركها "أبو عنان"[2]: "و كم أبقى بتلمسان من آثار حسان، ومصانع يعجز عن وصفها كل لسان ولا كجامع الخطبة الأعظم الذي أمر باختطاطه في حضيض البيت الذي فيه ضريح الشيخ الصالح أبي عبد الله "الشودي"[3] المعروف بالحلوي، وهو من أجمل الجوامع، وقد أحكمت فيه أنواع الصنائع وأبدى الاحتفال به ما شاء من البدائع الجوامع، وقد أحكمت فيه أنواع الصنائع، وأبدى الاحتفال به ما شاء من البدائع وتتصل به الزاوية المنفسحة الأرجاء اللابسة حلل السنا والسناء المزدانة بالقبة التي يجسد ارتفاع سمكها السماك وتتمنى الاقتداء بصدرها الأملاك، وتخنع لجمال مبناها الأفلاك"[4].

تُعدُّ هذه المدينة أثرية ضاربة في أعماق التاريخ وكانت مطمعا لملوك فاس، وعلى رأسهم أبو عنان فهم يريدون ضمها إليهم، كما تعد أيضا مكانا للصالحين، وتحتوي على معالم إسلامية كبرى كالجوامع، فيصف النميري أحد معالمها قائلا: " وتتصل بهذه الزاوية من جهة الجوف، مدرسة

---

[1] المصدر السابق، ص27.

[2] أبو عنان: هو فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني أبو العنان المتوكل على الله من ملوك الدولة المرينية بالمغرب. ينظر الحال الموشيّه في أخبار الدولة المركشية لؤلف مجهول تح: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979، ص 179.

[3] يلقب بالحلوي: وهو أكبر العلماء و العباد، استقر بتلمسان. ينظر ابن مريم البتسان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان: وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله: محمد بن أبي شنب، الجزائر، (د، ط)، 1908، ص 680.

[4] ابن الحاج النميري، فيض العباب، وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة من قسنطينة إلى الزاب، دراسة وإعداد، محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط1، 1990، ص 488.

متعددة البيوت، رفيعة السموت، بديعة النعوت، وبها أبواب تشرع إلى ديار كاملة المنافع، حسنة المقاطع معينة للرؤساء القائمين بالوظائف، المتولين لأرفاد البادي والعاكف"[1] فمدرستها المتميزة توحي بكون المدينة دار علم، ومقصد لطلابه.

و– البلوي:

يقول البلوي واصفا تلمسان: "رأيت مدينة قل مثلها وجل عرارها وبناها وأثلها بطاح وأوراح وربى ملاح وضياء وانشراح وبسيط له اتساع وانفساح"[2] فهي مدينة فسيحة متسعة الأرجاء مضاءة.

"والدائر بالبلد كله مغروس بالكروم، وأنواع الثمار، وسوره من أوثق الأسوار، وأصحها، وبه حمامات نظيفة، ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية، وهو مشهور قل أن يرى له نظير"[3] تحيط بهذه المدينة مختلف أنواع الكروم والأشجار تزينها وتزيد في رونقها، وتمدّها بالخيرات الكثيرة، بالإضافة إلى احتوائها على العديد من عناصر الحضارة كالحمامات الواسعة والنظيفة، ولعلّ حمام العالية أشهرها.

"وهذه المدينة بالجملة ذات منظر ومخبر وأقطارها متسعة، ومبانيها مرتفعة ولكنها مساكن بلا ساكن، ومنازل بغير نازل، ومعاهد أقفرت من متعاهد تبكي عليها فتسكب الغمام الهمع، وترثي لها فتندب الحمام الوقع أتى نزل بها مستضيف قرته بؤسا أو حل فيها ضيف كسته من ردا الردى لبوسا"[4] يوجد بهذه المدينة كثير من الخيرات، وهي محصّنة تحيط بها العديد من الأسوار، كما أنّها تحتوي على المناظر الجميلة المبهرة، وأرجائها متسعة لكنها على الرّغم من كلّ هذا فهي خالية تبعث الحزن في نفوس زوارها، ولعلّ ذلك راجع إلى الفاقة التي حلّت بها.

---

[1] المصدر السابق، ص488.

[2] أبو البقاء البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق تح: الحسن السائح، صندوق إحياء التراث العربي، مطبعة فضالة الغرب، (د.ط) (د.ت)، ص 148.

[3] المصدر نفسه، ص 177.

[4] المصدر نفسه، ص 177.

ز- القلصادي:

تحدّث القلصادي عن مدينة تلمسان وعن خيراتها وأهلها "يا لها من شأن ذات المحاسن الفائقة والأنهار الرائقة، والأشجار الباسقة والأثمار المحدقة والناس الفضلاء الأكياس المخصوصين بكرم الطباع والأنفاس ولا ينكر وجود الفاد"[1].

وصف هذا الرّحالة ما لقيّه من حسن وجمال في بلاد تلمسان، فتحدث عن روعة الأنهار، وطول الأشجار، كما ذكر سكانها الكرماء الظرفاء بحيث تعدى وصف المدينة من وصف المكان إلى وصف الأشخاص وطبائعهم.

ز- العُمري:

تحدّث العُمري عن مدينة تلمسان، وعن ملكها وعن خيراتها وأنهارها "هي قاعدة الملك الذي فتحه هذا السلطان (أبو الحسن)"[2] بسيفه، واستضافة إلى ملكه قال الشريف في كتاب أجار: "وهي في سفح الجبل، وبها آثار الأول وماؤها مجلوب من عيون على ستة أميال، ولها أسواق ضخمة ومساجد جامعة"[3].

فتح السلطان أبو الحسن مدينة تلمسان، وجعلها تابعة لمملكته، وهي مدينة جبلية فيها بقايا من آثار الأول، وفيها الخيرات من المياه، كما تحتوي على عناصر الحضارة مثل: الأسواق والمساجد. "يصب نهرها في بركة عظيمة من آثار الأول، ويسمع لوقعه خرير على مسافة ثمّ يصب في نهر آخر بعدما يمر على البساتين، ويستدير بقبليها وشرقيها، وتدخل فيه السفن اللّطاف حيث يصب في

---

[1] أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، رحلة القلصادي، تح، محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية، تونس، (د. ط)، 1978، ص 95.

[2] أبو الحسن المريني كانت مدته عشرين سنة وأربعة أشهر توفي بهنتاته مراكش سنة 1752. ينظر: الحلل الموشية في أخبار الدولة المراكشية لمؤلف مجهول ص 179.

[3] ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: محمد عبد القادر خريسات، عصام مصطفى هزايمية، يوسف أحمد ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، (د. ط)، (د. ت)، ص 124.

البحر، وهي دار علم متوسطة في قبائل البربر، ومقصد تجار الآفاق، زكية الأرض من الزرع والضرح"[1].

وصف هذا الرّحالة البركة التي يصب فيها النّهر العظيم، وأرضها الخصبة التي فيها خيرات كثيرة. واحتلالها مكانة مميّزة، وذلك لتوسطها المدن. "ولها حصون كثيرة، وقرص عديدة أشهرها قرصة هنين، وهي قبالة المرية، ووهران وتلمسان على ما بلغ حد التواتر في غاية المنعة والحصانة، مع أنها في وطأة ولكنها محصنة بالبناء، وتلمسان منحرفة إلى الجنوب الشرقي لفاس ولها ثلاثة أسوار. ومن جهة القصبة ستة أسوار بعضها داخل في بعض، ولم يهجس بخاطر أنّها تؤخذ ولكن سير الله لهذا السلطان أبي الحسن المريني صعبها وذلل له إباءها حتى ملك ناصيتها، وبلغ دانيتها وقاصيتها"[2] فتلمسان كما يرى العمري منطقة حصينة وبنيانها صلبة تحتوي على معالم تدل على الحضارة الإسلامية كالأسوار والقصبة.

"ومياه لها على درر الحصى انسحاب وانسياح، وروضات يعتري ويعترض إليها اهتزاز وارتياح وجنات ريقها ندى، وثغورها أتاح فسيحة الأرجاء، صحيحة الهواء ممتدة الغاية في الحسن والانتهاء، جوها صقيل مجتلاها جميل"[3].

تميّزت تلمسان بالهواء العليل الذي يبث الراحة في النفوس، وجوّها الجميل الذي يبعث الطمأنينة في قلوب السكان والزوار.

ط– الحسن الوزان:

ذكر الحسن الوزان ما يحيط بمدينة تلمسان، ومن سكنها قائلا: "يحد مملكة تلمسان واد زا ونهر ملوية غربا والواد الكبير (الصمّام) وصحراء نوميديا جنوبا وكانت هذه المملكة تحمل في القديم اسم قيصرية عندما كانت خاضعة لسيطرة الرومان، ثم آلت إلى ملوكها الأقدمين، وهم بنو عبد الواد المنتمون إلى مغراوة بعد أن أجلي الرومان عن افريقيا، وقد احتفظوا بالملك مدة ثلاثمائة سنة إلى أن

---

[1] المصدر السابق، ص 124.

[2] المصدر نفسه، ص 124.

[3] المصدر نفسه، ص 124.

انتزعه منهم أمير ذو شأن كبير يسمى "يغمراسن بن زيان"[1] وورثه عنه أحفاده، بحيث أن هؤلاء الملوك بدلوا اسمهم و دعوا بن زيان أي أولاد زيان هكذا كان والدا ليغمراسن"[2]. تُعَدُّ تلمسان مدينة التاريخ بين أرجاءها نقرأ تاريخ أمة، ونسمع صوت الملوك، وعظمة الحضارات الغابرة كالرومانية إلى أن جاء الإسلام وجعل منها مكانا للمسلمين فأصبحت لأحد ملوك الإسلام، ومركز الحضارة الإسلامية.

"تمتد مملكة تلمسان على مسافة ثلاثمائة وثمانين ميلا، من الشرق إلى الغرب لكنها تضيق جدّا من الشمال إلى الجنوب، إذ لا تتعدى المسافة خمسة وعشرين ميلا في بعض النقط من البحر المتوسط إلى تخوم صحراء نوميديا"[3]، إذن هي مدينة تقع في غرب الجزائر، وعلى ساحل البحر المتوسط، وهذا ما أكسبها تميّزا.

"ولهذه المملكة ميناءان مشهوران: ميناء وهران، وميناء المرسى الكبير ويكون معظم مملكة تلمسان أقاليم جافة قاحلة لا سيّما في جزئها الجنوبي لكن السهول القريبة من الساحل منتجة جدا نظرا لخصبها"[4] قربها من الساحل جعلها تتمتع بثروة هائلة، ومكانة كبيرة. "والجهة المجاورة لتلمسان كلها سهل مع بعض المفازات، حقا أنه توجد غربا عدة جبال قرب الشاطئ، وكذلك في إقليم تنس، وفوق بلاد الجزائر عدد لا يحصى من الجبال غير أنها كلها منتجة"[5] تتمتع تلمسان بالعديد من المميّزات فقربها من البحر أكسبها ميزة في أن تكون منطقة سهلية إضافة إلى الجبال المحيطة بها؛ فقد جمعت بذلك بين ثروات البحار وثروات الغابات والجبال.

---

[1] يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد بن عبد الوادي أمير المسلمين وأحد سلاطين بن عبد الواد. ينظر: يحي بن خلدون بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ص 59.

[2] الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقي، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982، ص7.

[3] المصدر نفسه، ص7.

[4] المصدر نفسه، ص7.

[5] المصدر نفسه، ص 9.

"ولا يوجد بهذه المملكة إلا القليل من المدن والقصور، غير أن الأماكن زاهرة والبقعة خصبة"[1] على الرّغم من قلّة القصور والعمران إلّا أن خصب المدينة جعلها متميزة زاهية.

ومن هنا وجب القول بأنّ تلمسان مدينة عظيمة ومملكة مرّت عبر تطورات ومراحل مختلفة واختلفت من ناحية الوصف من رحالة إلى آخر، فمنهم من وصف خيراتها وجمالها، ومنهم من جعل منها المدينة التاريخ، وتحدث عن ملوكها وأهلها، ومنهم من وصف معالمها ومراكز الحضارة بها فذكر وأسواقها... والملاحظ أنّ تلمسان قد تغيرت عبر التاريخ فقد كانت عند ابن حوقل مجرد مدينة قديمة لها سور قوي متين، فتحدث عن خيراتها ومزارعها، ثمّ أصبحت عند الإدريسي مدينتان بينهما سور، فتحدث هو الآخر عن نهرها وخيراتها، كما تحدث عن كونها تتوسط المدن، وتعدّ قفل المغرب بها يمكن العبور إليه وشدّت انتباه المؤلف المجهول عظمة تلك المدينة فأثارها تبنئ عن مكانتها، ونحن نرى من خلال التعاريف السابقة أن هؤلاء الرّحالة جميعهم وإن تحدثوا عن خيرات المدينة، وما يحيط بها من أنهار وقرى إلّا أنهم في الحقيقة اتفقوا على كونها مدينة قديمة أزلية، ثمّ تغير الوصف مع العبدري، فنجده تحدث عن خيراتها ومعالمها ومزاراتها الكثيرة، وأشار إلى مكانتها العظيمة، وذلك لوجود بعض الأعلام بها كابن خميس، أمّا النميري فتحدث عن تلمسان المدينة التاريخ أي عن آثار ملوكها، وأهل العلم بها، وعن معالمها الدينية وآثارها مثل: الجوامع و المدارس والزوايا...

كما وصف ما يوجد بها، من حمامات وأسواق، فتطورت هنا من المدينة القديمة إلى المدينة الحضارية، ومشيرا في الوقت نفسه إلى خيراتها الكثيرة والمتعددة لكنّه يرى أنّه على الرّغم من رحابتها إلّا أنّها تُعَدُّ كما يقول: « مساكن بلا ساكن » إنها ليست مكانا لاستقطاب السكان، فهي تبعث الحزن في نفوس من يزورها على حدّ تعبير البلوي أما القلصادي فذكر هو الآخر محاسنها وأنهارها، ووصف طبائع أهلها، ولكن في وصف العمري نجد أن تلمسان بالإضافة إلى خيراتها وأنهارها فهي مدينة متطورة تدخلها السفن، ولها حصون وأسوار وغيرها وهذا يعني أنّ العمران بها قد تطور فتحولت من المدينة الأزلية القديمة إلى المدينة المتطوّرة، وفي وصف الحسن الوزان نرى أنها شهدت تطورا ملحوظا

[1] المصدر السابق، ص 10.

فأصبحت مملكة فتحدث عن تاريخها، وما يحيط بها وعن الحضارات والأمم التي كانت تسكن بها، ومن هنا نجد ان تلمسان قد تطورت عبر أزمنة وتحولت من المدينة الأزلية إلى مدينة شهدت الحضارة والعلم والتقدم العمراني والرقي، وكانت أيضا المدينة التاريخ.

إذاً كانت تلمسان مملكة للعديد من الأمراء، ومعقل الحكم لعديد من دول الجزائر، كالدولة الزّيانية التي سنتطرق لها بالدراسة والذكر في الحياة السياسية لتلمسان إضافة إلى الناحية الثقافية التي سنقف عندها وندرس أهم الأعلام بهذه المدينة الغنية بثرواتها وبأهلها وأصحاب العلم بها.

الفصـل الأوّل:

الحياة السّياسية لتلمسان من خلال النثر

I- تلمسان من الفتح الى قيام الدولة الزيانيّة:

تلمسان هي تلك المدينة العتيقة، التي ظهرت ببلاد المغرب العربي، فكانت قطبا يضاهي الدول الإسلامية تقدما ورقيا، فبعد أن تعرفنا على هذه المدينة سابقا، من خلال ما جاءت به كتب الرّحلات، سنحاول كشف الغطاء عن الدول التي ظهرت بها من الفتح الإسلامي إلى قيام دولة بني زيان.

1- الفتـح الاسلامي لتلمسـان:

كانت تلمسان، فيما قبل الفتح الإسلامي مدينة بربرية " يقطن بها بنو يفرن[1] الذين كان لهم بالمغرب الأوسط بطون كثيرة بنواحي تلمسان"[2] وهم الذين اختطوا تلمسان، فهي كغيرها من مدن المغرب العربي بربرية خالصة تحولت فيما بعد إلى قاعدة ودولة إسلامية بفضل الفاتحين الذين أرسوا قواعد الإسلام في بلاد المغرب.

ولعّل أول الفاتحين، الذين وطئت أقدامهم أرض تلمسان: أبو المهاجر دينار:" ولي خليفة معاوية، على مصر، وقد زحف إليها أبو المهاجر، حوالي 55هـ، ... فتوجه هذا الأخير بجنده إلى تلمسان، لكن إقامته بها لم تطول، فوجهته كانت فتح المغرب الأقصى، لنشر الدين، وهكذا صارت تلمسان تابعة لولاة القيروان الذين حكموها باسم الخليفة الأموي، ومن بعدها باسم الخليفة العباسي"[3].

سعى الفاتحون العرب إلى نشر الدين الإسلامي، فوصلت دعوتهم إلى غرب بلاد الجزائر، فأضحت بذلك تلمسان مدينة إسلامية يحكمها مجموعة من الولاة من بينهم عقبة بن نافع وعبد الرحمن بن

---

[1] بنو يفرن: شعب من شعوب زناتة، وأوسع بطونهم. ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 15/7.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون 24/7.

[3] محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د. ط)، 2011، 46/1.

حبيب عام 135هـ، وظفر بما لم يظفر أحد قبله بها، وبقيت في حكم أولئك الولاة، إلى أن:" استولى عليها أبو القرة اليفرني أثناء القرن الثالث وأسس بها إمارة خارجية صفرية لم تطل مدتها جاعلا منها قاعدة لملكه"[1]

جعل أبو قرة اليفرني من تلمسان قاعدة أساسية لملكه، فأسس عرشه فيها " لكن إمارته بتلمسان كانت قصيرة"[2] فملكه لم يدم طويلا وانتهت فترة حكمه، ثمّ تولى الأمر بتلمسان بعده بنو خزر المغراويين[3] الزناتيين، ومن هؤلاء محمد بن خزر المغراوي الزناتي، الذي:" سلمّها للمولى إدريس ابن عبد الله صاحب المغرب الأقصى عام 173هـ"[4] إذا فحكم تلمسان آل لإمارة الأدارسة.

ظهرت بذلك الدولة الإدريسية في تلمسان التي كان يعيش فيها قبل الزناتيون البرابرة. فآلت فيما بعد للحكام الإسلاميين حيث ظهرت بها مجموعة من الدول، سنتطرق إليها على مرّ العصور انطلاقا من الدولة الإدريسية وصولا إلى دولة الزيانيين.

2- تلمسان في عهد الأدارسة:

بعد انتهاء ملك المغراويين في تلمسان، وتسليمهم الإمارة إلى كبير الأدارسة "إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن بن الحسن"[5]، أي أنّهم ينسبون إلى جدهم الأكبر إدريس بن عبد الله صاحب المغرب الذي " دخل المغرب الأقصى عام 172هـ فارّا من اضطهاد الخلفاء العباسيين، فإنه التجأ أولا إلى

---

(1) المرجع السابق، ص46.

(2) المرجع نفسه، ص47.

(3) المغراويين: كانوا أوسع بطون زناتة، ونسبهم الى مغرو بن يصلتني بن مسرين زاكيا... اخوة بني يفرن وبني زيان، وكانت محلاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف الى تلمسان. ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون 33/7.

(4) محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان 46/1.

(5) عبد الرحمن ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون 34/7.

مدينة وليلي في جبل زرهون فبايعه أهلها بالخلافة. ثم دان لهم أهل المغرب الأقصى كلهم"[1] دخل إدريس إلى المغرب الأقصى لما عانى من ويلات الخلفاء الذين قاموا باضطهاده، فاختار بذلك بلاد المغرب كوجهة له، فارّا من جبروتهم فذاع صيته هناك، وبايعه أهلها بالخلافة ثمّ اتجهت أنظاره إلى المغرب الأوسط "سنة أربع وسبعين ومائة فتلقاه محمد بن خزر، وألقى إليه القادة، وبايع له عن قومه، وأمكنه من تلمسان بعد أن غلب عليها بنو يفرن" [2] وهكذا قد أصبح يحكم تلمسان، لكن ملكه لم يدم طويلا حيث " أن الخليفة العباسي هارون الرشيد بعث له من قتله مسموما عام 177هـ، ثم تولى الأمر بعده ابنه إدريس الذي كانت أمه حاملا به حين وفاة أبيه"[3] كان الحكم، وراثيا بين الأدارسة، أما فيما يخص تلمسان فقد وجه إليها إدريس الأكبر أخاه سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن القادم إليه من الشرق " فسجل له إدريس حكم تلمسان، ولما توفي عقب ابنه مباشرة محمد بن سليمان الذي سلم الإمارة فيما بعد لابن عمه إدريس الثاني الذي قضى على الفتنة التي أُحدثت أيام الخوارج، وأقام بالمغرب نحو ثلاث سنين"[4] تمكن إدريس الأصغر من الحصول على ملك هذه المدينة "وعمل على تجديد العهد لابن عمّه على ولاية تلمسان بعد أن عقد صلحا مع بني الأغلب أمر إفريقية على أن يكون الحد الفاصل بينهما نهر الشلف ثم قفل راجعا إلى مدينة فاس بعد أن أقام ثلاثة أعوام بتلمسان؛ فقد مكن ابن إدريس الأكبر ملك تلمسان لابن عمه فآلت فيما بعد إلى بنيه وهم الأدارسة وبقيت كذلك إلى أن استولى عليها ابن أبي العافية المكناسي عامل العبيدين وقطع دعوة الأدارسة"[5].

---

[1] محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان،48/1

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون 34/7.

[3] محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان 48/1.

[4] المرجع نفسه، 48/1.

[5] المرجع نفسه، 48/1.

فمن هنا ينتهي منابر دعوة الأدارسة في تلمسان لتعقبها بعد ذلك فترة أخرى آل فيها الحكم إلى الفاطميين الذين احتدم الصّراع بينهم وبين الأمويين على إمارة تلمسان.

3- الصراع الفاطمي الأموي على تلمسان:

بعد انتهاء فترة حكم الأدارسة في تلمسان "وقعت جملة من الفتن بين قبيلة صنهاجة المناصرة للدولة الفاطمية في القيروان والمهدية، وبين قبيلة زناتة المناصرة للدولة الأموية في قرطبة، كانت تلمسان ضحيتها لأنها تارة خاضعة للفاطميين وتارة للأمويين"[1]، عانت تلمسان كثيرا من نار الفتنة الواقعة بين الفاطميين وبني أمية، فهي لم تكن بمعزل عن هاته الأحداث، بل وكانت ضمن الدول الإسلامية التي عانت من الصراع، وقد إستمرت محاولات الفاطميين في لإخضاع تلمسان " فبعد إستلاء موسى بن أبي العافية عليها، سنة تسع عشرة وثلاثمائة فملكها"[2] ويبدو أن ابن أبي العافية لم يدم حكمه بها "فقد ثار أهلها عليه، وبايعوا صاحب الأندلس الخليفة عبد الرحمان الناصر فأسند هذا الأخير أمرها إلى عامله على المغرب الأقصى، يعلى الافريني ... ولم ينتسب الأمر فيها لا للعبيديين[3] ولا الأمويين، لكن هذا الأخير قضى على القائد جوهر الصقلي وعلى المواليين الأمويين من بني يفرن ومغراوة الزناتيين وضمها نهائيا إلى مملكة العبيديين "[4] كانت تلمسان بين كفي ميزان تارة لدولة وأخرى لدولة ثانية، وقد أسند أمرها إلى يعلي الأفريني، الذي قضى عليه القائد جوهر الصقلي، ومن

---

[1] المرجع السابق، ص50.

[2] أحمد بن خالد النّاصري، الاستقصاء لأنهار دول المغرب الأقصى الدولة المرينية، تح: جعفر الناصري، ومحمد الناصري: الدار البيضاء، المغرب، (د. ط)، 1997، 243/1.

[3] العبيديين: نسبة: عبيد الله المهدي: ويقال انه [و محمد عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد ابن علي بن موسى، بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب، ينظر: عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال افريقيا من الفتح الاسلامي الى نهاية الدولة الأغلبية، أحمد بن ميلاد، محمد ادريس، تقديم ومراجعة حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي،ط1، 1987، ص223.

[4] محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف لحضارة تلمسان، 1/ 50.

هنا كانت النهاية للمواليين للأمويين من مغراوة والزناتيين "لتتحول فيما بعد إلى حكم العبيديين الذين فتحوا مصر، ونقلوا كرسيهم من المهدية إلى القاهرة، لتنظم بذلك تلمسان إلى الزيريين الصنهاجيين الذين أصبحوا يحكمون البلاد باسم الفاطميين، فالزيريون قد قضوا على زناتة الذين كانوا مواليين للأمويين"[1].

تمكن الفاطميون من القضاء على المواليين للأمويين، فتحولت بذلك الإمارة إلى آل زيري الصنهاجية الذين كانوا المناصرين لها، فيما قبل فحكموها باسم الفاطميين.

تلمسان المدينة التاريخ، قد عانت كثيرا من الصراعات والحروب، فقد تحولت من حكم لآخر فمن الأمويين والفاطميين إلى بلكين يوسف الصنهاجي" الذي استولى على حكم تلمسان، وخرّبها وشرّد أهلها ونقل الكثير منهم إلا عاصمة أشير إلا أنه لم ترق لهم الإقامة بهذه المدينة، فبنوا بالقرب منها مدينة أخرى، عمروها، ودعوها تلمسان الجديدة"[2]، فمدينة تلمسان، قد وقع عليها تخريب عظيم أحرزه فيها بلكين يوسف، فالواضح أن هؤلاء الأهل لم يستطيعوا البعد عن المدينة التي لا طالما احتوتهم أو تربوا في أرجائها، فقرروا بذلك الرجوع إليها. "أما فيما يخص، تلمسان الأصلية، فجدد بنائها، أمراء بني يعلي المغراويين، وجعلوها عاصمة المغرب الأوسط، ثمّ قام إليها آل زيري بن عطية بن خزز، قائما بالدعوة الأموية وتمكن من الإستلاء عليها وإرجاعها إلى حكم بني أمية وأبقى التصرف فيها إلى بني يعلى المغراويين"[3] فمُلك تلمسان متشتت بين دولتين اشتهرتا في التاريخ الإسلامي بصراعاتهما الطويلة على الخلافة، وهكذا بقيت تلمسان تعاني من الصّراعات بين قبائلها، صنهاجة وزنانة، فكلّ قبيلة كانت تقوم بالولاء لدولة معينة من الدويلات التي ذكرناها، فراحت جرّاء هذه الأحداث تلمسان كضحية حيث عانت كثيرا من فتن والصراع القائم بين الدولتين، فلم تكن

---

[1] المرجع السابق، 50/1.

[2] المرجع نفسه، 50/1.

[3] المرجع نفسه، 50/1.

بمعزل عن الصّراعات الحاصلة في الدول الإسلامية، وقد عرفنا من خلال هذه الصّراعات المتكررة على المدينة أنها كانت تقع في حكم الدويلات الإسلامية، واتُّخذت كمركز وقاعدة لحكمهم.

4- تلمسان في العهد المرابطي:

عرفت تلمسان قبل عهد المرابطين توافد مجموعة من الفاتحين عليها فكانت بذلك من ملك الأدارسة إلى الصراع الفاطمي الأموي عليها، لتعرف فيما بعد توافد مجموعة من الدول و الأقوام عليها عصرا آخر، وهو عصر المرابطين " ملك المرابطون[1]، أعمال المغرب الأقصى بعد مهلك يحي وولاية ابنه العبّاس[2] أبي بختي بتلمسان "[3] آلت تلمسان إلى حكم المرابطين بعد إمارة ملوك بني يعلى" ففي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة بعث يوسف بن تاشفين[4] قائده مزدلي بن تيلكان اللّمتوني لغزو تلمسان والمغرب الأوسط، فسار اليها في عشرين ألفا من المرابطين، وكان بتلمسان يومئذ العباس بن بختي ... فدخلوا المغرب الأوسط وتقروا بلاد زناتة" [5] كانت هذه البدايات الأولى لدخول المرابطين بلاد تلمسان، ولعل الفضل في ذلك يعود إلى أميرهم يوسف بن تاشفين، المفوض على بلاد المغرب، من قبل خليفة المؤمنين أبو بكر بن عمر " وفي سنة ثلاث وسبعين نهض يوسف بن تاشفين، بعد أن كان قد رحل الى المغرب، وترك تلمسان إلى قائده، وافتتح تلمسان، واستلحم بن يعلى، ومن

---

(1) المرابطون، أشراف من قبيلة صنهاجة، حوالي ألف رجل اجتمعوا الى عبد الله بن ياسين الجزولي، وسماهم المرابطين للزومة ربطهم، كانوا برابرة، ثم رسخ فيهم الاسلام، ينظر: أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة المرينية. 2/5- 7.

(2) العباس بن بخت، من ولد يعلى بن محمد بن خرد المغراوي. ينظر: أو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة المرينية 32/2.

(3) عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون 61/7.

(4) يوسف بن تاشفين، بن ابراهيم اللمتوني، فوضه الأمير أبو بكر بن عمر علي على بلاد المغرب، ينظر: أبو عباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء، 22/2.

(5) أبو العباس أحمد بن خالد النّاصري، الاستقصاء، 32/2.

كان بها من مغراوة، وقتل العباس بن بختي أميرها من بني يعلي ... وأنزل محمد بن تينعمر المسوفي في عسكر المرابطين واختطّ مدينة تاكرارت بمكان معسكره... والتي صارت تلمسان القديمة التي سمي أكادير بلدا واحدا وانقرض أمر مغراوة، من جميع المغرب"[1] فصّل ابن خلدون في تاريخ المرابطين ودولهم في بلاد المغرب لكن ارتأينا أن نأخذ منه إلّا ما يهم بحثنا، وهو تلمسان التي عُرفت فيها إمارة المرابطين بعد قضائهم على جميع المغراويين من بلاد المغرب.

قضى يوسف بن تاشفين على جميع المغراويين، كما ذكر ابن خلدون، وبنى مدينة جديدة " أصبحت مركزا رسميا للحكومة المرابطية إذ نزل بها القواد والجنود والرؤساء والأعيان، فذلك دعا إلى تشييد دار الإمارة والمسجد والجامع بها ... فبنى حينئذ يوسف قصر تلمسان القديم، الذي كان موقعه غرب الجامع الكبير، وأسكن به عامله محمد السوفي وعساكر المرابطين"[2]كانت تلمسان مستقرا للمرابطين الذين شيّدوا بها المباني، والجوامع، والقصور، حتى أصبحت هناك مدينتان، واحدة قديمة والأخرى حديثة، ممّا يدل على استقرارهم في المنطقة، ثم كانت بعد خلافة يوسف أبو تاشفين خلافة " علي بن يوسف الذي شيّد مجموعة من المعالم في بلاد تلمسان مثل: الجامع الكبير، حي تقررت، حي ايلان ... وكانت تلمسان في عهد المرابطين مقر الولاة على المغرب الأوسط"[3] واستمرت على هذا الحال إلى أن حاصرها الموحّدون بقيادة عبد المؤمن بن عليّ الكومي.

لتتحول بذلك هذه المدينة من ملك المرابطين الى ملك آخر، إن كان عصر المرابطين حافلا بالمنجزات العظيمة لهؤلاء الملوك والسلاطين من المرابطين، الذين تركوا لها جملة من الآثار العمرانية، تدلّ على قدرتهم، وعلى استقرارهم ببلاد تلمسان ردحا من الزمن، فعملوا القصور العالية والجوامع،... وقد دلّت هذه الأخيرة على عظمة أولئك وشموخهم، وإن لم تدم فترة حكمهم، وزال

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 61/7.

[2] محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان، 56/1.

[3] المرجع نفسه، ص56.

ملكهم بتلمسان، لنشهد بعد ذلك عهدا آخر لولاية تلمسان، ودولة أخرى ظهرت في أكناف هذه المدينة، وتوسعت في أرجائها، ولعلنا هنا سنتحدث عن عهد الموحدين في تلمسان.

5- تلمسان في العهد الموحدي:

قامت دولة الموحدين على أنقاض الدولة المرابطيّة: " قامت الدولة الموحدية في البداية بمراكش، وكان أمر المرابطين والملثمين يومئذ اسحاق بن علي بن يوسف ... حاصر الموحدون، فانهزم، وقتله عبد المؤمن[1]، وأصبحت بذلك الدولة للموحدين"[2] تم حصار المرابطين من قبل عبد المؤمن بن عليّ الكومي، فقضى بذلك على دولة المرابطين ببلاد المغرب لتظهر بذلك هذه الدولة الجديدة الموحدية ففرضت سيطرتها وبزغ نجمها في بلاد المغرب عامة، أمّا نحن فبصدد البحث عن هذه الدولة في بلاد تلمسان.

أسس دولة الموحدين " محمد بن تومرت المعروف بالمهدي، وهو من هرغة من بطون المصامدة"[3] فالفضل في تأسيس هذه الدولة التي ظهرت في المغرب هو المهدي "ثم بويع بعده عبد المؤمن الكومي، وإن رفض الموحدين في البداية، لأنه من غير جلدتهم إلّا أنه كان رجلا ذكيا محنّكا فاستطاع الوصول إلى الخلافة، فبايعه بداية أشياخ الموحدون، ثم كافة الموحدين"[4] رفض الموحدون في البداية سلطة عبد المؤمن لكن بخبرته استطاع الوصول الى الحكم، وبعد خلافته توجهت أنظاره نحو تلمسان وكان قد سبقه اليها "[5] تاشفين بن عليّ الذي خرج من مراكش على طريق السهل إلى أن وصل تلمسان

---

[1] عبد المؤمن: هو من بني عبد المؤمن ليس من المصامدة، وإنما من كومية، ثم من بني عابد منهم وكومية، ويعرفون قديما بصطفورة من بني فاتن ... بنو عم زناتة، وهو عبد المؤمن بن علي التيمي الكومي، قد لازم المهدي.

[2] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، 73/1

[3] المصدر نفسه، 99/2.

[4] أبو العباس، أحمد بن خالد النّاصري، الاستقصاء، 102،101/2.

[5] المصدر نفسه، 103/2.

وقد نزل السهل مما يلي الصفصاف، أمّا عبد المؤمن، قد نزل ما بين الصخرتين من جبل تيطري ... وتوالت الأحداث المتكررة بين الجيشين وحاصر عبد المؤمن بن علي حتى تمكن من هزيمته"[1] فوصل بذلك عبد المؤمن الى تلمسان " وافتتحها وعفا عن أهلها ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها بعد أن ولى عليها سليمان بن محمد بن وانودين، وقيل يوسف بن والذين"[2] تمكن عبد المؤمن من فتح تلمسان وأصبحت من أهم مراكز الدولة الموحدية بعد ان ترك واليا عليها " فانمحى بذلك أثر الملثمين، واستولى الموحدون على جميع البلاد "[3] فكانت بذلك الرياسة لهم بلا منازع وفي أثناء فتح عبد المؤمن لمدينة تلمسان " جدّد بناء دورها، وحصّنها غاية التحصين بتجديد بناء سورها أي أقادير ... كما جعل منها الولاية الغربية من المغرب الأوسط"[4] ففي فترة حكم عبد المؤمن، قام بتجديدات متعددة على مدينة تلمسان، وحصّنها وجعلها منها قاعدة لملكة تاركا فيها واليا عليها، وفي سنة 549هـ عيّن كولي على تلمسان ولده أبا حفص عمر:" وبقي وليّا عليها الى عام خمسمائة وخمسين هجرية، ثم بعد رحيله إلى مراكش عين مكانه أخاه أبا عمران موسى سنة 556هـ، وبقي بها عام 564هـ، وهي السنة التي تحرك فيها الخليفة عبد المؤمن للجهاد بالأندلس مستخلفا له على مراكش، وبعث مكانه لإلى تلمسان السيد أبا الحسن علي بن عمر" وهكذا بقيت خلافة تلمسان في أيادي الموحدين ردحا من الزمن، تداولها الخلفاء الموحدون واحدا تلو الآخر، لمدّة طويلة حتى تربص بها بنوا عبد الواد الذي قاموا بإغراء خليفة الموحدين السيد "أبا سعيد الذي كان قليل الحيلة والتدبير"[5] إذاً

---

[1] أبو العباس أحمد بن خالد النّاصري، الاستقصاء، 2/ 105- 106.

[2] المصدر نفسه، ص2 /106.

[3] المصدر نفسه، 109/2.

[4] محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، 2/ 58.

[5] عبد الرحمن ابن خلدون، 99/7.

عرفت تلمسان، أيضا دخول الموحدين وحكمهم فيها حيث استولوا عليها مدة من الزمن وتوارثوها أبا عن جد حتى آلت إلى حكم بني عبد الواد أو الزيانيون بعدهم.

II- الـدولة الزّيانـية:

إنّ من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الدولة الزيانية هو سقوط دولة الموحدين، فقد قامت هذه الأخيرة على إثرها، وبنيت نفسها على أنقاض حكم الموحدين الضائع " فالحقيقة هي أن الأسباب التي أدت إلى قيام دولة بني زيان في تلمسان ... زوال سلطة المصامدة أصحاب دولة الموحدين، خلّف وراءه فراغا واسعا، يمتد من جبل تيطري في الجزائر الحالية إلى كل نواحي المغرب الأقصى، سارع إلى ملئه بنو زيان في تلمسان، وبنو مرين في المغرب"[1] فالدولة الزيانية قامت إثر ضعف الدولة الموحدية وانكسار شوكتها، ممّا أدّى إلى وجود فراغ، ملئته الدولة الزّيانية في تلمسان، من خلال نشأتها وتوسعها بهذه المدينة، فاستطاعت بذلك أن تعطي نموذج لحضارة عريقة ظهرت في بلاد الجزائر، لذلك وجب علينا أن نعرف هذه الدولة وأصولها.

1- أصول بني زيـان:

تعدّ الدولة الزّيانية من أحد أهم الدول التي ظهرت في تاريخ الجزائر العريق فقد وُجدت هذه الأخيرة وانتشرت أركانها وأخذت بالتوسع انطلاقا من المجهودات المكثفة، لسلاطين وحكام تلمسان، الذين سعوا إلى إرساء قواعدها وأركانها، فإليهم يعود الفضل في توسع هذه الأخيرة وازدهارها، وقبل الحديث عن هذه الدولة وجب أولا معرفة أصل بنو زيان، ولعلّ المصادر القديمة قد تطرقت لنسبهم فهم

[1] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزّيانية، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية بور سعيد (مصر)، ط1، 2001، ص36-37.

"الطبقة الثانية من زناتة[1]البربرية [2]"[3] هذه الطبقة سكنت بلاد المغرب الأوسط، واستقرت فيه ولعله نفس ما ذهب إليه المؤرخ للدّولة الزّيانية يحي ابن خلدون في مؤلفه حين قال: " انتهاء بني عبد الواد أعزهم الله إلى زناتة البربر"[4] فبنوا عبد الواد يعودون بأصلهم إلى الطبقة الثانية من زناتة، فهم برابرة أصليين" فزناتة قد انقسمت الى طبقتين فالطبقة الأولى هي التي كان منها مغراوة ملوك فاس، وبنو يفرن ملوك سلا، والطبقة الثانية هي التي كان منها بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط، وبنو مزين ملوك فاس والمغرب الأقصى"[5] فبنوا عبد الواد ينتمون إلى أحد فروع زناتة، وبنو عبد الواد هم: " بنو طاع الله، وبنو دلول، وبنو مطهر وبنو وعزان، وبنو معطى، وبنو حجى، أما بقية بني عبد الواد وهم بنو ياتكتن، وبنو للو ومصحوجة، وبنو يعلان، وبنو رسطف، فليسوا من ولد القاسم، ونسبهم في قيس بن عيلان بن مضر وانضاف إليهم الزرادلة لأن زردال وعابد الواد أخوان وبهم تكمل اثني عشر قبيلا المعدودة في عبد الواد، ستة في ولد القاسم، وخمسة في ولد عابد الواد، وواحدة في ولد زردال أخيه، وغلب اسم عبد الواد على الجميع"[6] واحتوت قبيلة بني عبد الواد جملة من القبائل، لتشكل القبيلة و الفرع الأكبر وهم بنو عبد الواد وهكذا اندرجوا جميعا تحت هذا الاسم أو هذه القبيلة.

---

[1] زناتة: هو جبل قديم في المغرب وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون بها، أما نسبهم فقد اختلفت فيه المصادر، وموطنهم بسائر مواطن افريقيا، والمغرب، ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 3/7، 4.

[2] البربر: هم سكان المغرب القديم ملئوا البسائط والجبال، ... يتخذون البيوت من الحجارة والطين، أما نسبهم فيختلف ما بين جالوت من فلسطين وهمير من اليمن، ينظر: تاريخ ابن خلدون، 116/6.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 97/7.

[4] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، مطبعة بير فونتانا الشرقية الجزائر، (د. ط)، 1903، 1/ 89.

[5] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة المرينية، 3/3.

[6] محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بن زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح: محمود آغا بو عياد، موفم للنشر، الجزائر، (د. ط)، 2011، ص109.

فيحي ابن خلدون يرجع نسبهم وجذعهم الرئيسي إلى بني قاسم، فيقول في أصلهم " هم بنو القاسم من ولد إدريس بن عبد الله الحسن، بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قيل هو القاسم بن إدريس، وقيل ابن محمد بن إدريس، وقيل ابن القاسم ابن إدريس وقيل ابن محمد بن عبد الله بن إدريس"[1] فكلّ هؤلاء ينتمون في أصلهم إلى الأدارسة، ولعلّه نفس ما ذهب إليه التنسي.

فيرى التنسي أن نسبة الزيانيين تعود إلى جدهم "القاسم، جد أمير المؤمنين اتفق النسب على أنه من ولد عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. ولكن اختلفوا في طريق اتصاله به، فقيل أنه القاسم بن إدريس بن عبد الله الكامل، وقيل أنه ابن محمد بن إدريس بن عبد الله، وقيل أنه ابن محمد بن عبد الله بن إدريس بن عبد الله"[2].

وافق التنسي في هذا الصدد رأي يحي ابن خلدون في نسبة الزّيانيين إلى الأدارسة لكن يختلف في طريقة اتصاله به، فمن خلال هذا التعريف نستكشف الاحتمالات التي وضعها التنسي في اتصال الزّيانيين بالأدارسة.

وإن رفض ابن خلدون هذا النسب قائلا:" ويزعم بنو القاسم هؤلاء أنهم من أولاد القاسم بن إدريس ... زعما لا تستند له إلا اتفاق بني القاسم"[3] فهذا المؤرخ يرفض نسب بنو عبد الواد إلى الأدارسة فيخالف بذلك أراء الكتاب الآخرين " وقد قال يغمراسن بن زيان أن أبو ملوكهم لهذا العهد لما رفع نسبه إلى غدريس كما يذكرون فقال برطانتهم ما معناه: إن كان هذا صحيحا فينفعنا

---

[1] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، 1/ 101.

[2] التنسي، تاريخ بن زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، ص110.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 97/7.

عند الله، وأمّا الدّنيا فإنما نلناها بسيوفنا"[1] فالفضل في ظهور الدولة الزيانية يرجع إلى جهود سلاطينها الأفدان فقد أخذت بسيوفهم وبقوتهم.

وينسب الزّيانيون بذلك إلى أب ملكهم يغمراسن فإليه يعود الفضل في قيام الدولة الزّيانية، أمّا أصول هؤلاء، فهم زناتيون برابرة استوطنوا المغرب الأقصى، وكان لهم فيها ملك عظيم.

2- توليهم الحكم:

بنو عبد الواد، هم فروع من زناتة البّربريّة نزلوا تلمسان، وكان لهم بها ملك عظيم، فممّا يؤكد على أنهم كانوا يقطنون هذه المدينة قول ابن خلدون " ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع الصروح بها بالأجر والنهر تعلى وتشاد إلى ان نزلها آل زيان واتخذوها دارا لملكهم، وكرسيّا لسلطانهم فاختطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين، وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل اليها النّاس من القاضية ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء وانتشر بها الأعلام وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية"[2] فمن خلال ما جاء به هذا المؤلف نستطيع أن ندرك مجموعة من الحقائق عن بني زيان، وبداية سلطتهم في تلمسان، فقد اتخذوا من المدينة مكانا لسلطتهم، فسعوا كلّ السعي الى تطويرها وجعلها مدينة تضاهي في رونقها ورقيّها الحواضر الإسلاميّة، ولعلّ هذا القول يؤكد على نزول بني عبد الواد أو الزيانيين تلمسان.

ويرجع السبب في وصول بني زيان إلى الحكم إلى ضعف أمر بني عبد المؤمن[3] " فهنالك تطاول

---

[1] المصدر السابق، 97/7.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 105/7.

[3] بنو عبد المؤمن: وهم عبد المؤمن بن علي أنصار وحماة قطر تلمسان، وهم الحلفاء للموحدين، اصحاب مراكش، ينظر: يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، 105/1؛ التنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان، ص112.

بنو عبد الواد إلى ملك وطن تلمسان والاستحواذ عليه"[1] فوصول بنو زيان إلى الحكم يرجع إلى ضعف الدولة الموحدية، وهو ما جعل بنو عبد الواد يغتنمون الفرصة، ويتطاولون على ملك تلمسان، وهذا لقربهم منها " فجاسوا خلاله، وأوجفوا عليه بالخيل والركاب، واجتاز كل فريق منهم جانبا من القطر، وأمن أهله عن خراج يؤديه كل سنة، وأمر جميعهم إلى كبيرهم جابر بن يوسف بن محمد وهو ابن عم زيان والد امير المسلمين يغمراسن بن زيان بن ثابت ابن محمد"[2] وصل بنو عبد الواد إلى الحكم وتمكّنوا من بسط نفوذهم في تلمسان "وأمنوا أهلهم من الخراج، وأجمعوا تفويض أمرهم إلى كبيرهم جابر بن يوسف ابن محمد بن زجدان بن نيدوكس بن طاع الله وكان لإخوته أولاد معمر وطن تلمسان، وما يليها فأحسنوا بالناس سيرة ووافوا لهم بعهد الأمان حتى تمكن أمرهم في البلاد"[3] فانتهاء حكم تلمسان قد عاد إلى بنو عبد الواد وبقوا متمكنين في البلاد، "ولم تزل أيديهم على الدولة المؤمنية حتى أيام المأمون ابن يعقوب المنصور بن يوسف العسري ففيها كان ابتداء أمرهم العزيز وصيرورة الملك الى محله من بني إدريس"[4] كان أخ ابن يعقوب الموحدي آنذاك واليا على تلمسان وأساء إلى بني عبد الواد، "فالحسن بن حيان أساء جوار بني عبد الواد، وعمل على زرع الفتنة فقام بإغراء عثمان أخ أمير المؤمنين المأمون ابن يعقوب الذي ترك بنو عبد الواد حلفاء له في تلمسان، فقام أخ المأمون بالقبض على كبار بني عبد الواد حتى شفع فيهم ابراهيم بن اسماعيل علان الصنهاجي، فلم يقبل أخ أمير المؤمنين الشفاعة مما حزّ في نفس الشيخ فذهب واغتال ابن حيان وسرّح بنو عبد الواد واعتقل مكانهم أخ المأمون"[5] فعندما كان أخو المؤمنين واليا على تلمسان قام بالاحتيال على بني الواد وأخذ جماعة منهم واعتقلهم إلّا أنّا أمر الاعتقال لم يدم فقد شفع فيهم

---

[1] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، 1/ 105.

[2] التنسي، نظم الدر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من ظم الدروالعقيان في شرف بني زيان، ص112.

[3] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، 105/1.

[4] المصدر نفسه، 105/1.

[5] المصدر نفسه، 106/1.

ابراهيم بن إسماعيل علّان الصنهاجي لكن الوالي على تلمسان رفض ممّا جعل الشفيع يحسّ بالإهانة فجمع قومه وذهب لإطلاق سراحهم، وأخذ مكانهم عثمان بن يعقوب.

" لكن سولت له نفسه بعد ذلك في الحكم فأراد قتال كبار بني عبد الواد، فأعدّ بذلك حيلة، وهي وليمة العشاء ليتمكن من الظفر بهم، لكن وصل خبره إلى بني عبد الواد فتدبروا أمرهم قبل الوصول إليه فقبضوا عليه، وأخذوه مع ثمانية من أصحابه"[1] فالذي شفع لبني عبد الواد وأطلق سراحهم، أراد بعد ذلك الحصول على ملك تلمسان، وعلم أنه لن يطالها إلّا بقتله كبار بني عبد الواد فصنع حيلة لقتلهم فأعد لهم العشاء وعزمهم، وذهب بنوا عبد الواد لهذه الوليمة، لأنه كان قد أحسن إليهم، لكن ولحسن الحظ علموا قبل وصولهم بحيلته وبذلك انقلب السحر على الساحر كما يقال فأصبح هو المقبوض عليه "ودخل جابر بن يوسف وإخوته المدينة لحينه بدعوة المأمون فحل دار إمارتها وضبط أمورها واستقر بحكمها"[2] دخل جابر بن يوسف وقومه من بني عبد الواد بدعوة من عبد المؤمن، فتمكنوا بذلك من إدارة تلمسان وحكمها " وبعث بذلك إلى المأمون، فقنع منه بالخطبة والسكة"[3] فكان بذلك جابر بن يوسف يبعث إلى المأمون ويغدق إليه العطاء فقبل المأمون بذلك، وآل حكم تلمسان إلى الزّيانيين "فاستولى على أحواز تلمسان وعلى بني راشد وعلى حواضر ذلك القطر سوى ندرومة فزحف إلى حصارها فهلك هنالك بسهم أصابه من داخلها لثلاث أُمَرَتِهِ"[4].

استطاع جابر بن يوسف الاستيلاء على أحواز تلمسان وعلى الأقطار المجاورة لها لكن عندما ذهب لحصار ندرومة تم اغتياله وقتله بسهم، وبذلك كانت نهاية إمارته.

---

[1] التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان، في شرف بني زيان، ص133.

[2] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ص106.

[3] التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر و العقيان، في شرف بني زيان، ص133.

[4] المصدر نفسه، ص113.

عندما تمكّن بنو عبد الواد من الدخول إلى تلمسان والاستيلاء على أقطارها بدعوة من المأمون، تمكن جابر بن يوسف الذي عرفناه مسبقا من ملك تلمسان، لكن ملكه لم يدم، وتم اغتياله عند ذهابه لحصاره ندرومة فآل الحكم بعده إلى "ابنه الحسن بن جابر لستة أشهر ثم خلع نفسه لعمه عثمان لكبر سنه فأساء المملكة"[1] لعلّ عثمان بن يوسف لم يحذو حذو أخيه بل أساء لملكه، "فتم إخراجه من تلمسان، واتفق بنو عبد الواد تقديم أبي عزة زيدان بن زيان، فاستولى على تلمسان، وأعمالها ونكث عنه بنو مطهر، وظاهرهم بنو راشد، فكانت بينه وبينهم حروب، قتل في بعضها فحينئذ قدّم بنو عبد الواد أخاه أمير المسلمين يغمراسن بن زيان وبايعوه بيعة الملك المستقل وخلعوا بني عبد المؤمن"[2] إذا حكم بعد عثمان بن يوسف أبو عزة زيدان الذي اتفق عليه بنو عبد الواد لكن كانت بينه وبين بني مطهر وبني راشد حروب، فقتل في أحد هذه الحروب، فقدم بذلك بنو عبد الواد أخا أبو عزة، وهو يغمراسن بن زيان الذي تمكن من خلع بني عبد المؤمن، وهكذا تمكن يغمراسن من إمارة تلمسان، ومن هنا آل حكم تلمسان إلى بني عبد الواد فتوسعت بذلك دولتهم وأصبحت من أعظم المراكز الحضارية في الدولة الإسلامية، ولعلّ الفضل في ظهورها وتطورها بهذا الشكل يعود إلى مجهودات الأمير يغمراسن بن زيان الرجل السياسي المحنك الذي سنتعرف عليه لاحقا.

3- يغمراسن بن زيان (المنشئ الأول للدولة الزّيانية):

يُعدّ مؤسس الدولة الزّيانية، وله الفضل في ظهورها، تميز بالدهاء والحنكة، فاستطاع الوصول إلى الحكم بفضل مجهوداته، فآلت إليه تلمسان، بعد أن كانت مركزا من مراكز الدولة الزّيانية فهو كما يصفه يحي ابن خلدون "بارع الثنية، وعاطف الحنيية، المستثار دون الملوك بالخلال السنية، مظهر

---

[1] المصدر السابق، ص113.

[2] المصدر نفسه، ص113.

الريع والريعان، مقيم جفلي الطعام، والطعان، خليفة الله المرتضى، ولسيف حمايته المنتظر ووعد أمنيه الصادق المقتضى منير الإحكاك وناظم الأسلاك، وملك الشرف وشريف الأملاك إلى علاء مجد وعلم وكمال"[1] أثنى يحي على هذا الحاكم ووصفه بمجموعة من الصفات بيّن فيها خلاله الحميدة، وسجاياه وفضله وكرمه وعزته.

أمّا ابن الأحمر فيبدو أنّه كان من المناصرين لبني مرين فقد وصف بني عبد الواد بالخوف فقال "فأولهم جدهم يغمور الذي في قبره من خوف مرين مغمور ... ولما مات وجعلوه في قبره، لم تقبله الأرض، ولفظته من جوفها إلى أن دفن بإزاء قبر الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر بن مرزوق، فقبلته الأرض ووارده التراب، وذلك ببركة جوار هذا الصالح أخبرني بذلك الشيخ الصادق اللهجة أبو الحسن علي بنى محمد بن القاسم القيلسي التلمساني المعروف بالميروقي حسبما أخبره بذلك والده محمد عن أبيه محمد، وكان أدرك يغمراسن وشاهد دفنه"[2] يبدو أن ابن الأحمر يحتقر يغمراسن، ويحط من شأنه، لأنّه في ذلك مؤيد لدولة المرينين، التي تنافست مع الدولة الزّيانية على ملك تلمسان لذلك فهو سعى دائما إلى احتقار هذا الرّجل الذي كان له الدور البارز في دولة بني زيان.

أمّا مولد يغمراسن ابن زيان "فقد كان سنة ثلاث أو خمس، وستمئة، وكان كريما شجاعا فاضلا، حكيما متواضعا، ذا سداد، وعفاف، ومجد وعلا يؤثر العلماء والصالحين ويجالسهم، وقد كان يقدر أهل العلم"[3] كان هذا السلطان محبا للعلم والعلماء، فكثيرا ما أغدق عليهم بالعطاء والنوال.

---

[1] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، 109/1.

[2] أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مزين، المطبعة الملكية، الرباط، (د. ط)، 1962، ص 45.

[3] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، 1/ 110.

كان يغمراسن مواليا للدولة الموحدية " فلم يزل يغمراسن مع ملوك الموحدين في ذل وهول، ينادونه بالشيخ وينادونه بمولانا"[1] فمن خلال ما جاء به ابن الأحمر يمكننا القول إنّ يغمراسن قبل انفراده بتلمسان جعلها ملكا للزّيانيين كان مواليا لدولة الموحدين.

أمّا فيما يخص توليه الحكم بتلمسان " فقد بويع يوم وفاة أخيه عزة زيدان، المذكور أنها يوم الأحد الرابع والعشرين من ذي القعدة لسنة ثلاث وثلاثين، وستمئة "[2] فقد بويع بالخلافة، وتمكن إذ ذاك من الوصول الى ملك تلمسان.

فلما تولى حكم تلمسان قام بمجموعة من الأشياء التي جعلت من دعوته، تصل إلى أبعد حدودها، فكما يقول يحي ابن خلدون أنه:" خلط زي البداهية بأبهة الملك وأشعر القبيل لباس الشريعة، فأعلى المنارة، ومهد الخلافة، وأوثر الأريكة، وأسمع أهل المشارق، والمغارب صوت الدعوة"[3] استطاع يغمراسن أن يجعل من الدولة الزّيانية دولة معترف بها في حدود الأرض، خاضعة لحكم إسلامي خالص "فلما بويع أمير المسلمين يغمراسن بن زيان، أوضح للخلافة الحسنية الآثار، ورفع لمن ضل عن سبيل هداها، أعلى منار، فابتهج الدهر، بوجوده وأشرق من فلك اليمن نجم سعوده، وأحضر للملك، ما كان قد ذبل من عوده، وأنجز الزمان للبيت النبوي، ما كان يكثر التسويف به، من موعوده، فظهرت به أبهة الخلافة في بيته، واستعمل ما يورث الملك كمالا وجمالا في هديهه وسمته، فانتخب الوزراء والحجاب، وانتقى القواد، والكتاب، ونازعه بنو مطهر، وبنو راشد، فأظهر الله على الجميع"[4] وضّح يغمراسن المعالم عن خلافته فكانت تلمسان في عهده رمزا للخلافة الإسلامية

---

[1] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزّيانية، ص64.

[2] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، 1/ 111.

[3] المصدر نفسه، 111/1.

[4] التنسي، تاريخ بن زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان، ص115.

القائمة على المبادئ القوية، وعلى سنة المصطفى أما فيما يخص دولته، فقد قام بضبط قواعده، فعين كل شخص في منصبه.

4- بعض سلاطين الدولة الزّيانية وأبرزهم:

عرفت الدولة الزّيانية في فترات حكمها الطويلة جملة من السلاطين الذين كان لهم الفضل في نهوض وتطور وتوسع تلمسان، والجعل منها مدينة تضاهي الأمصار العربية قوة، وصلابة لعلّ الفضل الكبير في ذلك يعود الى السلطان الأول الذي وضع للدولة معالمها الكبرى، وهو يغمراسن بن زيان الذي قد عرفناه سابقا، أما الآن سننتقل إلى سلطان وملك آخر، وهو السلطان:

أ- عثمان بن يغمراسن بن زيان:

يُعدّ من أبرز السلاطين في هذه الدولة وهو الابن للسلطان الذي كان له الفضل في قيام دولة بني عبد الواد، تولى الحكم بعد أبيه، قد وصفه يحي ابن خلدون قائلا " درة الحصيلة، وسيد هاتيك الفضيلة، ومصلى حيلة جيادة الأصيلة مثير كنوز الحظ وهدف الرخاء والمض، ومعود الحروب سنة الكر واللظ، استخدم المهاجرين والأنصار فحكم الايعاب وافتاد في إرسان رماحه الصعاب واستضاف الأوطان وأقام رعاياه البطان"[1] مدحه يحي بمجموعة من الصفات التي قد تفوق حدودها الوصف فزاد بذلك من قيمته وأعطانا صورة لرجل فاضل حسن التدبير.

أما مولد هذا السلطان كان "لسنة تسع وثلاثين وستمئة، وكان شهما مقداما محببا الى القلوب ذا سياسة وصبر للحوادث بويع أوائل ذي الحجة متم لسنة احدى وثمانين وستمئة"[2].

---

[1] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، 1/ 117.

[2] المصدر نفسه، 118/1.

تولى الحكم بعد أبيه مباشرة، وقد اتسم بمجموعة من الخصال، اهتم يحي ابن خلدون بذكرها وتعدادها في بغية الرواد لأنه كان مؤرخا للدولة الزّيانية.

تمت مبايعة هذا السلطان بعد أبيه " فقد تولى حكم تلمسان حتى عام 693هـ أين وافته المنية في حصار السلطان أبي يعقوب بن عبد الحق المريني، وله خمس وخمسون سنة وكانت دولته 12 سنة"[1] توفي عثمان بن يغمراسن جرّاء الحصار الذي فرضه أبو يعقوب بن عبد الحق المريني والذي أراد ضم تلمسان إلى مملكته.

ب- أبو زيان محمد بن عثمان:

من الأسرة الزّيانية وابن السلطان عثمان بن يغمراسن، وصفه يحي في مؤلفه قائلا "استوضحت أنوار السعادة عزته، بدولته انفرجت بعد شدتها الأزمة، وانحلت من عداه عقب شدها الحزمة فذهب البرح، والذمل والفرح، وشيّد بعد انهدامه الصرح فاقتبل الملك شبابه وتسربل من عزّ جلبابه وفتح لدخول الأفواج بابه"[2] فكانت دولته دولة سعادة وعزة، شيد لها ملك عظيم بعد أن كان قد هُدّم، أما فيما يخص ملكه بتلمسان فقد بويع هذا الأخير " بتلمسان، وهي محصورة السلطان أبي يعقوب المريني في ذي القعدة سنة 693هـ، ومات وهو في حصر السلطان أبي يعقوب المريني في شوال عام 697، وله 31 سنة وكانت دولته أربع أعوام"[3].

لقي الرجل نفس ميتة أبيه فمات وهو يعاني من الحصار الذي فُرض على تلمسان ردحا من الزمن، عانى فيه سكان المدينة، الويلات الكبيرة والمخاطر الشديدة فقد ذكرت هذه المعاناة في العديد من الكتب، مثل: رحلة الوزان، ورحلة عبد الرحمن ابن خلدون، كان هذا السلطان، "فاضلا مبارك حسن

---

[1] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزّيانية، ص68.

[2] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، 1/ 122.

[3] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزّيانية، ص70.

ملكه بين الخباب"[1] فقد عرفت إمارة هذا السلطان بحسنها، فعظمت مملكته وعلا قدره بين رعاياه، وقد عرف بفضله وحسن معاشرته.

ج- أبو حمُّو موسى الأوّل:

كان هو الآخر من أهم السلاطين بالدولة الزّيانية "تولى الحكم بعد وفاة أبي زيان، محمد انتصب على سدة الحكم في تلمسان -في معظم الأقوال-يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر شوال سنة 707هـ فنقل الدولة الزيانية من عهد السذاجة، القبلية والبساطة في الأحكام الى الملك العضوض"[2].

استطاع هذا السلطان أن يرسم لدولته معالم كبرى فنقلها من ملك بسيط معتمد على السذاجة كما يقول الكاتب إلى ملك عظيم له قدره وشأنه بين الأمصار، وقد بويع هذا السلطان "بعد أخيه محمد وهو في حصار السلطان أبي يعقوب المريني، في شوال لسنة 697هـ، وقتله أبو تاشفين ابنه في جمادى الأخرى من عام 716 وله 35 سنة وكانت دولته 21 سنة".[3] ولعلّ هذا السلطان قد عانى من الحصار المفروض على مدينته، وقتله ابنه ولعلّ ذلك يعود في الرغبة الى الحكم و السلطان، أمّا فيما يخص مدح يحي ابن خلدون له فقد قال عنه "ملك همام، وشعلة وغمام وبهمة مراس وأسد بطش وافتراس معيد المدة، مفرج الشدة، ومقاتل بسيفه لهل الردة الفظ القضا الهين عند الاقتضاء، الذي رفع الخرق وعمل الحق، ثم دوخ الشرق، وأنار ببواتره، بآفاقه البرق وفرع النوار وسلك الأنجاد والأغوار فابتلى الأطوار وخبر الظلماء والأنوار فسدد الأهوار وشيّد الأسوار وحفر الخنادق وملا المطامير والصناديق"[4] فمن خلال ما رسمه ابن خلدون عنه استطعنا استنتاج بعض الملامح الكامنة

---

[1] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، 1/ 122.

[2] بوزياني الدراجي، أدب وشعراء من تلمسان، دار الأمل للدراسات، الجزائر، (د. ط)، 2011، 191/1.

[3] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزّيانية، ص71.

[4] حي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر علماء بني عبد الواد، 1/ 126،127.

في شخصية هذا السلطان، فهو ذا همة عالية وهيبة، مزيل العواقب، قوام على الأعداء وصل إلى الحكم فاستطاع تدبير شؤونه بسياسة محكمة.

د- أبو تاشفين الأوّل:

وصفه يحي ابن خلدون بقوله:" ملك يتبجّج في الأصالة الجلال تزيى بخلال الشرف وشرف الخلال أي حياء وكمال ووزر وثمال ومطمح منى وأمال، بهو تلك الاشادة وبيت القصيد والإنشادة ذو الهمم المزاحمة للكواكب والعزائم الطاعنة في صدور المواكب والعطايا المخجلة السحب السواكب، بزغت بافق الدولة شمسه فانمحى اسمه واكتمل بسماء العز ابداره فتسرى عن قمر دولته سراره"[1].

أثنى عليه ابن خلدون، ونسب له مجموعة من الصفات التي فاقت حدود المعقول، وجعل منها رجلا فريدا من نوعه لا تعرف الأرض مثله.

أمّا ابن الأحمر فوصفه بصفات متناقضة تماما لما جاء به يحي ابن خلدون قائلا عنه " وكان أبو تاشفين لئيما بخيلا مسيكا شديد الشح، أخبرني بشحه ابن وزيره، عمر بن موسى بن علي الكردي بعد أن سألته عنه: كان قد حجر على سائر الخضر بيع جميع الأقوات والخضارى ولا يبتاعها إلا هو، وكان يحبس في يده قبضة الكرنب ومثلها في يده اليسرى ويقيس هذه مع هذه فإن وجد الواحد أكبر من أختها يأمر الخضار بالنقص من الزائد"[2].

ذكر ابن الأحمر صفاته الذميمة، وأعطانا صورة عن بخله، لكن الذي يهمنا هو سلطانه بتلمسان "فقد بويع بعد أبيه في شهر جمادى الأخرى سنة 718هـ... وكانت دولته 19 سنة"[3] تولى الحكم

---

[1] المصدر السابق، 1/ 122.

[2] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزّيانية، ص72.

[3] المصدر نفسه، ص72.

بعد أن قتل أباه، ودامت دولته فترة طويلة استطاع فيها أن يصل بالدولة إلى قمة الحضارة، ومن منجزاته بنائه للمدرسة التاشفينية التي سنتحدث عنها لاحقا، في الناحية الثقافية بتلمسان.

5- المظاهر السياسية لسلطة بني زيـان:

تميّز الحكم في تلمسان بمجموعة من المظاهر التي انطبعت في تاريخ الدولة الزيانية من النشأة حتى السقوط.

تميّز حكم الزّيانيين بمجموعة من المظاهر السياسية ففي حكم يغمراسن بن زيان، قام هذا الأخير بمجموعة من التعديلات التي استطاع من خلالها أن يكون البرهان و المثال الأعلى لرعيته "فقد أحسن السيرة في رعيته، واستمال عشيرته وقومه وأحلافهم من زغبة، وحسن السياسة، والاصطناع، وكرم الجوار، واتخذ الآلة ورتّب الجنود والمسالح، واستلحق العساكر من الرّوم والعزّ رامحة وناشّبة، وفرض العطاء واتخذ الوزراء والكتاب، وبعث في الأعمال ولبس شارة الملك، والسلطان واقتعد الكرسي، ومحا آثار الدولة المؤمنية، وعطّل من الأمر والنهي دستها، ولم يترك من رسوم دولتهم، وألقاب ملكهم إلّا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش وتقلّد العهد من يده تأنيسا للكافة ومرضاة للأكفاء من قومه"[1] فبنو زيان منذ وصولهم إلى الحكم سعوا إلى إرساء قواعد السلطان، وتدبير شؤون دولتهم، وتشييد المنشآت المختلفة والرقي بالحضارة وتطويرها، فبنوا قاعدة صحيحة لملكهم.

كما كانت سياستهم ودولتهم تكنّ العداء للدولة المرينية والحفصية وكثيرا ما تضررت تلمسان من حصار المرينيين "فكانت لهم مع ملوك الموحدين من آل عبد المؤمن ومديلهم آل أبي حفص مواطن، في التمرس به منازلة بلده ... وبينهم، وبين أقتالهم بني مرين قبل ملكهم المغرب وبعد ملكهم وقائع متعددة"[2] فقد دامت صراعات بني زيان مع الدول المجاورة لها جارية، غير منتهية، فكانت أيضا

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 106/7.

[2] المصدر نفسه، 106/7.

لهم وقائع متعددة مع الدولة المرينية التي تربصت بملك تلمسان، وقامت بمحاصرتها ردحا من الزمن، وقد ذكرت المصادر المختلفة حصار المرينيين لتلمسان الذي طال عهده، فلا داعي لذكره لكي لا نطيل فالذي يهمنا هو السياسة الخاصة بحكم الزّيانيين.

كما أصبحت تلمسان مركزا تجاريا وماليا ولعلّ هذا يُعدّ من المظاهر السياسية لسلطة الزّيانيين "وإذا نظرنا إلى أهمية التبادل التجاري، بين إيفريقية وأوروبا عن طريق تلمسان، ووهران أو مرسى هنين نجد أن تلمسان، قد أصبحت في أيام يغمراسن بن زيان مركزا تجاريا ماليا رئيسيا ... فلكي تنشأ هذه المنشآت في إقليم تلمسان لابد أن يكون غنيا جدا ومدخراته لابد أنها كانت وافرة"[1] تجلّت هذه المبادلات التجارية في تلمسان كمظهر من المظاهر السياسية التي انتهجها سلاطين الدولة الزّيانية للوصول بدولتهم إلى أبعد الحدود فعقدوا بذلك المبادلات بين القارتين الأوروبية والإفريقية.

كما سعى سلاطين تلمسان إلى جعلها مدينة تضاهي الحواضر العربية حضارة وعمرانا "ففي أيامهم، ازدهرت كل مدن الإمارة، وخاصة تلمسان التي أصبحت في أيامهم أزهر مدن المغرب بعد القيروان وتونس وفاس، ومراكش، واتسعت رقعتها حتى أصبحت تضاهي، فاس من حيث السعة ووفرة المباني السامقة وكثرة المساجد وتعدد الأسواق"[2] وصل السلاطين الزّيانيين بسلطانهم إلى القمة منتهجين بذلك المظاهر السياسية التي أدت إلى نشر الثقافة في بلادهم وجعلها مركزا حضاريا.

أمّا فيما يخص حكومتها "فهي ملكية استبدادية، مطلقة غير جارية على قواعد سياسة الخلافة كالحكومات المعاصرة لها شرقا وغربا"[3] فنظام الحكم في دولة بني زيان غير جار على القواعد المعروفة

---

[1] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزّيانية، ص48.

[2] المصدر نفسه، ص47.

[3] مبارك محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د. ط)، (د.ت)، 448/2.

بل هو ملكي، وراثي فكل سلاطين الدولة الزّيانية يعدّون من آل زيان ونسل يغمراسن "أبو يحي يغمراسن بن زيان، أبو سعيد عثمان الأول بن يغمراسن بن زيان، أبو زيان محمد الأول بن عثمان، أبو حمو موسى الأول بن عثمان، أبو تاشفين عبد الرحمن الأول ابن موسى..."[1] وهكذا فتعاقب السلاطين في الدولة الزّيانية يرجع إلى نظام الحكم الملكي الوراثي، فسلطة الأب يحكمها من بعده ابنه.

6- أسباب سقوط الدولة الزّيانية:

لعلّ الكاتب الجزائري مبارك الميلي استطاع أن يعطينا الأسباب الكامنة وراء سقوط الدولة الزيانية، وبسّطها لنا، وأعطانا مختصر شديد لأسبابها قائلا: " فإنها لم تزل منذ نشأتها تصطلي بنار الحروب الداخلية، والخارجية فمن غارة مرينية إلى حرب حفصية ومن مناهضة مغراوية أوتوجينية، إلى منافسة زيانية، ومن دساسية سويدية إلى مشاقة عامرية، ومن نفاق اسباني إلى غلظة تركية، ولا ظل في التاريخ العام لدولة صغيرة كهذه منيت بمثل ما منيت به، وامتدت حياتها مثلها".[2]

فمن خلال ما جاء به هذا الكاتب الجزائري الذي قدم لنا الأسباب جملة وتفصيلا، نستطيع أن نخلص الى جملة من الحقائق فتلمسان قد كانت ملك لدولة عظيمة، استطاعت أن تمد نفوذها، وتفرض سيطرتها وقتا طويلا، وترسم معالم لدولة إسلامية خالصة دلّت عليها مدارسها، وجوامعها، وقصورها الشامخة التي بقت وستبقى خالدة عبر التاريخ، تعبّر عن مجد حضارة عربية وجزائرية خالصة رسمها أبناء، ورعية هذه الدولة.

وإن زالت واندثرت، فهذا راجع إلى الاضطرابات والفتن الداخلية التي غلغلت كيانها، وهزّت جبروتها، والحروب الداخلية التي أثقلت كاهلها من حرب إلى أخرى، ومن حصار إلى فتنة وثورة داخلية،

---

[1] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزّيانية، ص56.

[2] محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 2/ 489، 490.

بالإضافة إلى التنافس الخارجي عليها، فقد كانت تلمسان كغيرها من المدن الجزائرية مركزا تكالبت عليه الدول الأوروبية وبخاصة الإسبانية، وذلك لقرب المدينة من إسبانيا، بالإضافة إلى الأتراك، أو السلاطين المعروفين بأبناء الدولة العثمانية الذين أرادوا أيضا جعلها مركزا ومدينة لحكم العثمانيين، ولعلّ هذه الأسباب الكثيرة التي قدمها لنا مبارك الميلي كفيلة لسقوط هذه المدينة.

الفصـل الثاني:

الحياة الثقافية لتلمسان

من خلال النّثر

I- نبذة عن الحياة الثقافية بتلمسان ومساهمة ملوك بني زيان في نشر الثقافة:

1- الحياة الثقافية بتلمسان:

تطرقنا فيما سبق إلى مدينة تلمسان فعرفنا موقعها، وكيف نظر الرَّحالةُ إليها، وكيف أسهب هؤلاء في وصفها ووصف خيراتها وغلاتها وأنهارها، ثمّ انتقلنا فيما بعد إلى معرفة السياسة القائمة بهذه الأخيرة خلال فترة تعدُّ مهمة وذهبية في عمر المغرب الأوسط وبخاصة تلمسان التي كانت مركزا من مراكز الإشعاع والحضارة والتقدّم، حيث كانت ملتقى لأهل العلم والمعرفة، ومركزا لتبادل الثقافات فقد حلّت بهذه المدينة ثلّة من أهل العلم والأدب واستطاعوا بفضل حكامها وسلاطينها نشر الثقافة والعلم وفي هذا الصدد يقول يحي ابن خلدون عن تلمسان وعن أهلها: " هم معدن العلماء والأعلام والأولياء والمشاهير نجابة في الدرس والعبادة تشهد بذلك المزارات المحجوبات من الأقطار النائية خارج بلدهم بالأخبار المتواترة على لسان الخاص والعام"[1]، مثّلت تلمسان مركزا لأهل العلم، وقد كثر بها الأولياء والعلماء كما تعدّ، أيضا، من المراكز الدينية وخير دليل على ذلك مساجدها ومزاراتها الكثيرة، كما يدل على شهرتها صيتها الذي ذاع في مختلف أرجاء المعمورة، فعرفها بذلك العام والخاص، وهي مركز للدين والفقه والعلم كما تعتبر، أيضا، ركنا من أكان الحضارة فمعالمها المزينة بالخزف وغيره تعطينا لمحة واضحة عن حضارة عربية خالصة: " توجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة صينة لها أئمة وخطباء وخمس مدارس حسنة مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية شيّد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس"[2].

بناء المساجد والمدارس يدل على اهتمام السلاطين بالثقافة وبالعلم والعلماء، وتنشيط الحركة الفكرية والدينية والأدبية.

---

[1] يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بن عبد الواد، ص22.

[2] الحسن الوزان، وصف افريقيا، 20/2.

اشتهرت في تلمسان علوم مختلفة، حيث اهتم علماؤها بشتى الفنون، وذلك لوجود المدارس المتعددة بها، والتي تضم مجموعة من الطلبة والأساتذة " ولنرجع إلى المدينة حيث يوجد بها قضاة ومحامون وعدد كبير من العدول يتدخلون في الدعاوي وكثير من الطلبة والأساتذة في مختلف المواد سواء في الشريعة أو العلوم الطبيعية، وتتكفل المدارس الخمس بمعاشهم بكيفية منتظمة"[1] فهذه المظاهر المختلفة تدل على انتعاش الثقافة بتلمسان، والتطور الذي مسَّ القطاعات المختلفة.

فهذه المدينة مركز للعلم " فتلمسان محل العلماء والمحدثين والصلحاء"[2] فقد كانت قطبا اشعاعيا ازدهرت فيه العديد من العلوم المختلفة.

2- مساهمة ملوك بني زيان في نشر الثقافة:

كان لسلاطين الدولة الزّيانية الدور الفعّال، في نشر الثقافة والعلم، فكان لهم الفضل في بناء المدارس، والمعاهد، ونشر العلوم المختلفة، وتوفير الجوّ المناسب لذلك " أكثر ما اشتهرت به دولة عبد الواد الزّيانية هو اعتناء ملوكها بالعلم والعلماء فلقد كان التعليم منتشرا في المدن والقرى معتمدا على طرق بيداغوجية جد متقدمة، تقام الدروس في المسجد الأعظم بتلمسان والمدارس المتخصصة"[3] فالعلم بتلمسان لم يعدّ حكرا على المدينة فقط بل توسع ليشمل جميع الأماكن معتمدا على وسائل متطوّرة" لقد أبدى ملوك بني عبد الواد رعاية وعناية بالعلم والعلماء، والمنافسة التي كانت قائمة بين ملوك المغرب الإسلامي، في مجال العلوم والآداب، حيث كان البلاط العبد الوادي بداية من يغمراسن بن زيان وفي عهد خلفائه يرى أن التجاء العلماء إلى دولته إنما هو تشريف لها، واغناء لثروتها العلمية وسمعتها الأدبية في المغرب الاسلامي خاصة والعالم الاسلامي عامة، وكان يرى أن هذه الرعاية تضفي

---

[1] المصدر السابق، ص20، 21.

[2] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، 21/2.

[3] عمار عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر والتوزيع، القبة(الجزائر)، 2002، ص86.

على شخصه سمعة ومهابة"[1]، اهتم ملوك تلمسان بالعلم فكانوا ينافسون الحواضر العربية المجاورة لهم، في مختلف مجالات العلم، فأرادوا أن يصنعوا لها الريادة بين الأقطار والمدن العربيّة، فلقد كان للسلاطين الدور الفعّال في تنشيط الحركة العلمية بتلمسان وجعلها مركزا من مراكز العلوم المختلفة. كما اعتنوا بتشييد المدارس والمساجد والمراكز التعليمية التي أقيمت للتدريس، وتخرّج منها جملة من العلماء الذين استطاعوا أن يعطونا لمحة عن الحياة الثقافية في تلمسان، وذلك من خلال ابداعاتهم سواء في الفكر أو الدين أو الفقه أو الأدب وغيرها من الفنون الأخرى.

والذي ساعد على ازدهار ثقافة هذه المدينة خلال هذه الفترة هو اهتمام سلاطينها بالثقافة فكانوا بذلك يجسدون ثقافة هذه المدينة أحسن تجسيدا، من خلال تنشيطهم للحركة الفكرية والأدبية وتقريبهم للعلماء والأدباء فظهرت بذلك جملة من الفنون سواء الشعرية أو النثرية، والتي كانت تقام في بلاط السلاطين والحكام الذين سعوا جاهدين لتنشيط الثقافة وجعل المدينة مدينة علم وحضارة بلا منازع وقبل أن نتعرف على هؤلاء السلاطين وعلى سيرتهم وحياتهم وأعمالهم وجب علينا أولا معرفة أحد هذه المظاهر مثل المولديّات وكيف كان يحتفل بها في بلاط الزّيانيين، وظهور هذا الفن في بلاد المغرب العربي.

فالمولديّات تعدّ لونا شعريا ظهر للاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، ولمعرفة معنى كلمة المولد وجب علينا البحث عن مدلولها اللغوي والاصطلاحي.

[1] الأثر، مجلة الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد التاسع، ماي 2010، ص265.

II- المولديات:

1- تعريف المولديات:

أ- لغة:

لمعرفة مدلول كلمة المولديات لغويّا، وجب علينا الاستقصاء والبحث ضمن معنى كلمة مولد واشتقاقاتها، في المعاجم العربية لهذا يجب علينا أوّلا معرفة أصل ومنبع الكلمة وذلك بالعودة إلى فعلها الذي أشتقت منه، جاء في لسان العرب " وَلَدَ: الوَلِيدُ، الصَبِيُّ حينَ يُولدُ، وقال بعضهم: بل هو للذَّكَرِ دُونَ الأُنْثى، وقال ابن شميل يقال غُلامٌ مَوْلودٌ وجَارِيةٌ مَولودةٌ أي حين ولدته أُمُّه والوَلَدُ اسم يجمع الواحد والكثير والذَّكَرُ والأُنْثَى"[1] فمن خلال ما جاء به ابن منظور يمكننا أن نعرف من الفعل ولد هو الطفل حين يولد ومنه ولد هو وقت الولادة "ومَولِدُ الرَّجُل: وقت وِلادِه، ومَولِدُهُ: الموضع الذي وُلِد فيه، ووَلَدَته الأمُّ تَلِدُه مَوْلِدًا، وميلاد الرجل: اسم الوقت الذي وُلِد فيه"[2] ومن هنا فالمولد هو الوقت الذي يولد فيه المولود، والمكان الذي يولد فيه ولعلّه نفس المعنى الذي اتفقت عليه جلّ المعاجم اللغوية الأخرى، وجاء في معجم الوسيط "المَوْلِدُ: موضع الولادة، وقتها والجمع مَولِدُ "[3] إذا فالمولد هو وقت الولادة، وموضعها.

ب- اصطلاحا:

تعدُّ المولديات لونا جديدا من ألوان المديح النبوي الشريف، وهي ما يذكر في ليلة المولد، وما يُذَكّر بسيرة الرّسول عليه الصلاة والسلام، وأول من احتفل بمولد النّبيّ عليه الصلاة والسلام هم الفاطميون " وكان المشرق قد استنّ الاحتفال بالمولد النبوي في ليلة الثاني عشر من ربيع الأول في القرن الحادي عشر الميلادي بمصر أيام الفاطميين

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، 3/ 467.

[2] المصدر نفسه، 3/ 468.

[3] المعجم الوسيط، ص1056.

بطريقة رسمية، وأوّل احتفال به بطريقة جماهرية شعبيّة كان في إبريل لأوائل القرن الثاني عشر ميلادي"[1] فالاحتفال بمولد الرّسول عليه الصّلاة والسّلام لم يعرف من قبل، وظهوره كلون جديد يعدّ حديث النشأة لأنه لم يشتهر مع صحابة الرّسول بل كانت بدايات الاحتفال به مع عصر الفاطميين، وهم أول من سنّ هذه الطريقة في الاحتفال بالسيرة المحمدية، ثمّ انتقل مع الفاطميين إلى بلاد المغرب " نقله العباس العزفي الشريف إلى سبتة مدينته، وعنها شاع في تلمسان، وغيرها من البلاد المغربية، وكان الذي أشاعه في تلمسان والجزائر وجعله تقليدا للدولة الزّيانية أبو حمو موسى الزّياني"[2]

أصبح المولد النبوي احتفالا رسميا تقام له التحضيرات اللازمة وتعرض فيه مختلف الفنون الأدبية، وبخاصة الشعرية منها متعرضين لسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد انتقل إلى المغرب العربي مع الفاطميين، وشاع في أقطاره، وأصبح يحتفل به وتحضر فيه مختلف مظاهر الزينة، ويعرض فيه الشعراء قصائدهم ومواهبهم أمام السلاطين، الذين شجعوا هذه الاحتفالات، وساهموا في انتشارها فالمولدية، إذا هي قصائد مديحية " يبدأ فيها المنشدون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام، وبمكفرات ترغب في الاقلاع عن الآثام، يخرجون في كل ذلك من فن إلى فن ومن أسلوب إلى اسلوب، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب"[3] فالمولدية فن ازدهر في بلاد المغرب العربي، وهي قصائد تبدأ بالمديح النبوي لتنتهي إلى أغراض أخرى مختلفة، وهي تحث المؤمن على فعل الخير واجتناب الآثام، وهي قصائد تبعث الراحة في نفس الإنسان فيرتاح لسماعها.

---

[1] شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1990، ص210.

[2] المرجع نفسه، ص210.

[3] المرجع نفسه، ص211.

تطرقنا فيما سبق ذكره إلى معنى كلمة مولد، واشتقاقاتها اللّغوية وتطور مدلولها، وكيف وصل إلى مغربنا العربي أمّا الآن سنسلط الضوء على مرحلة مهمّة في تاريخ تلمسان، وهو عصر الدولة الزّيانية، التي امتدت ثقافتها، وتوسعت بصورة لافتة للنّظر ممّا جعلها مركزا إشعاعيا للحضارة العربية، ولعلّ الفضل في ذلك يعود لسلاطين هذه الدولة الذين ساهموا في نشر الثقافة بها، وتشجيعهم للعلم والعلماء، مثل احتفالهم بالمولد النبوي وكيف كان يعقد في بلاط هؤلاء السلاطين، وكيف كانت تُقام له التحضيرات، وكيف كان الشعراء يتنافسون في ميادين المديح النبوي، لذلك وجب علينا أوّلا معرفة أحد أهم سلاطين الدولة الزيانية وهو أبو حمُّو موسى الزّياني ومظاهر إحيائه لليلة المولد النبوي.

2- السلطان أبو حمُّو موسى الزّياني الثاني واحتفاله بليلة المولد النبوي الشريف:

أ- نبذة عن شخصية السلطان أبو حمُّو موسى الزّياني الثاني:

أحد أهمّ سلاطين الدولة الزيانية ترك بصمة واضحة في تاريخ هذه الأمّة، فمن خلال الأوصاف التي تركها يحي ابن خلدون نستطيع أن نستكشف شخصية هذا الرجل السيّاسي الذي يقول فيه:" أوج الملوك العالي، والسجدة في فرقان المعالي، وقبلة الآمال المضروبة إليها آباط البخت لالتماس الحظ والبخت وآية الله التي رأيناها أكبر من الأخت والأخت طود قد أرساه الوقار، وجود ظهر في الأرض إليه الإفتقار وكسرى السياسة بالمغرب، والآتي من آياته الموسوية بالمعجز بالمغرب"[1] أثنى يحي ابن خلدون على أبي حمُّو ونسب إليه جملة من الأوصاف والشمائل مثل الهيبة والوقار، وشبهه بكسرى في عظمته وحنكته السياسية، فله من والوقار ما يبعث الرّهبة في قلوب أعدائه، وقد اتصف هذا الأخير بجملة من السجايا الكريمة التي فصّل يحي ابن خلدون فيها، وذكرها وتحدث عن سيرته الكريمة يقول " إشتمل هذا الخليفة - أيده الله- من خلال الكمال، وكمال الخلال على آي لا تحصى، وإنفرد

[1] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر علماء بني عبد الواد، 2/ 20.

من عوالي المعالي، و المعالي العوالي بالمطمح الأقصى، عيص ريحاني الأشجار، وخلق طالبي النجار، وخلق للمحاسن في آيات فرقانه أي اشتجار"[1].

واصل يحي صاحب كتاب البغية مديحه للسلطان الزّياني وذلك لتحليه بصفات حسنة لا تحصى، حيث يعدّ هذا الأخير من أهل الدين، والأئمة الصالحين فيقول عنه" إنه فضل على أيمة الأمة لين بالمريج، فالمعارف واضحة البرهان والمفاخر مسلم لجيادها السبق في يوم الرهان، والسراوة معلمة البرد، والمجادة محكمة السرد، والمعاني تقاصر عن حباتها مدارك الزوج والفرد، إلى النائل والحلم الواضح الدلائل، والعدل المتفيئة ظلاله عن اليمين والشمائل".[2]

تميز السلطان أبو حمّو بالعدل والهمّة والوقار. وممّا قيل في مدحه: قصيدة من بحر الطويل [3]

نَهُوضٌ لِكَسْب الحَمْدِ ينظِمُ شَمْلَهُ ونُورٌ إذَا هَوَلَ الخُطُوبَ مَهُولُ

غَمَامٌ إذَا أعطَى هَمَامٌ إذا سَطَا فَلَا صَعْبٌ إلَّا في يَديهِ ذَلُولُ

مَراقِي سَناءٍ دُونَهُ الأَوْجُ رِفعَةً ومَرْمَى عُلَاهُ ما إلَيْهِ وُصُولُ

ولَا عَيْبٌ إلَّا أَنْ غَضَبَ مَضَائُهُ لِتَشْدِيخ هَامَ الخَطْبُ فِيهِ فَلُولُ

أبانت أبيات يحي ابن خلدون عن وقار السلطان أبي حمّو فنقل صورة معظمة عنه وهذا أمر طبيعي لأنّ يحي ابن خلدون هو مؤرخ الدولة الزّيانية، ولابدّ أن يمدح سلاطينها، وإنجازاتهم العظيمة على جميع الأصعدة والميادين. تولى الحكم "سنة 760هـ ثمّ نفي لسنة 761هـ، ثم عاد إلى العرش وظل فيه إلى سنة 773هـ، ثمّ عزل وعاد إلى العرش لسنتي 785هـ و 786هـ، وتوفي لسنة 789"[4] تولى الحكم في فترة معينة من تاريخ الدولة الزيانية، ولعلّ

---

[1] المصدر السابق، 24/2.

[2] المصدر نفسه، 25/2.

[3] المصدر نفسه، 26/2.

[4] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزّيانية بتلمسان، ص34.

هذه الفترة تعدّ بالذّهبية في تاريخ هذه الأمة، وهي فترة العصر الوسيط، فكان هذا الرجل أحد أعمدة الدولة الزيانية، ويعود له الفضل في تشجيع الثقافة بتلمسان، وتنشيطه لمختلف عناصر الحضارة، فكانت دولته دولة يعمّها مختلف المظاهر الثقافية، فلما استقر هذا السلطان في الحكم عمل على تأسيس دولة قوية عرفت برقيها وتطوّرها بين دول المغرب الإسلامي.

أبو حمّو كان عالما يجيد أفانين الأدب فله من الشعر والنثر الشيء البديع " فلما استقر المولى أبو حمو من هالة في نصابها، وانتزع دولته من يد غصابها، ساس أهل مملكته بالسيرة الحسنى، وغمر الرعية قسطاس عدله الأسنى، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه وحرق يمضيه، وعاق يرضيه وسيف لحماية الدين ينصيه، وجفن عن عوراء الأمة يغضيه، وسبيل إلى إرضاء الله تعالى ورسوله بقضيب"[1] فبعد توليه الحكم استطاع أن يزين دولته بمختلف المظاهر التي خلقت لها الخلود فيما بعد، وجعلت منها ذاكرة يرجع لها المتصفح لأدب الجزائر، وهو يحس بالفخر لأنه ينتمي لهذا الوطن، فقد استطاع أن ينظم وقته بين الحكم وشؤونه، وبين مرضاة الله، وبين اهتماماته بالثقافة من تأليف وإبداع.

وكان هذا السلطان صاحب إبداع وبلاغة " وله من النثر الرائق، والشعر الفائق، ارتفعت صنعته من بلاغة الملوك ومن العلم العقلي والنقلي ما جلا نوره عن الدنيا مدلهمات الملوك، فليقظة حربه نام عمر الحروب، وبصرامة أقدامه تجلت عن زيد الخيل الكروب، وليوم سلمه خلق الرخاء، والجود والسخاء، ومن ذكائه أستعير ذكاء اياس ومن حلمه كان للأحنف اقتباس"[2]

---

[1] محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان، ص160.

[2] المصدر نفسه، ص161.

تميز بموهبة وذائقة أدبية فريدة وهو أحد أهل العلم بالإضافة إلى صرامته وقدرته في الحروب، أما وقته فقد كان وقت خير وسخاء عمّ البلاد، وكان رجلا ذكيّا محنّكا حليما ولعلّ معظم هذه الصفات قد أخذناها من مؤلفي عصره الذين أطروا عليه بالشيء الكثير وقدموا أوصافا له ربّما تفوق الواقع، أمّا بالنسبة لمؤلفاته فقد استطاع هذا الأخير أن يروث لابنه كنزا أدبيا يُعرِّفه فيه بطريقة الحكم والحنكة السياسية ..." صنف كتابا أدبيا ملوكيا لولده المولى أبي تاشفين ولي عهده سماه " واسطة السلوك في سياسة الملوك" أتى فيه بالعجب العجاب وضمنه من رائق نظمه ما أزرى بالسحر الحلال"[1] قدم السلطان أبو حمّو موسى الزّياني هذا الكتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك لابنه أبي تاشفين، وقد جاء فيه ببلاغة وسحر أدبي فائق، " فهو نظم ارتفعت طبقته عن شعر الملوك، وسياسة تكفل بشعر لف فضلها"[2]، يعد مُؤَلَّفه أحد الكتب في تاريخ الدولة الزّيانية لأنه يحتوي على وصايا الأب لابنه، وكيف يتحلى هذا الأخير بالسياسة التي تضمن بقائه أمّا صاحبه فيعد خير مورِّث، لأنه ورّث كنزا دفينا يرجع له فيما بعد ويستفيد من خبرته.

كان هذا أبو حمّو موسى الذي يعدّ من أكبر السلاطين المشجعين للدور الثقافي في الأمة الجزائرية، أمّا الآن سنتعرف على أحد أهم المظاهر الثقافية التي كان ينشطها هذا الأخير ولعلّها ليلة الاحتفال بمولد المصطفى عليه الصلاة والسلام فهذا الاحتفال يعدّ من أكبر مظاهر الثقافة في العهد الزّياني، فكان يستعد لهذه المناسبة ويقرب إليه الشعراء والأدباء ليحيوا هذه الليلة وينشدوا المولديات التي ازدهرت وراجت في هاته الفترة.

كان بنو زيان يقيمون أبهة كبيرة للاحتفال بمولد النبي عليه الصلاة والسلام " وقد تنافس بنو زيان مع بني مرين في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في أبهة زائدة، وكان الاحتفال بالمولد بدعة جديدة في المغربين الأوسط

---

[1] المصدر السابق، ص162.

[2] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر علماء بني عبد الواد، 2/ 31.

والأقصى في ذلك العصر وقد ذكر لنا السلاوي من كان أول من احتفل بالمولد من بني مرين، وكان احتفال ليلة المولد يدوم طول الليل، وكان يقام في القاعة الكبرى في المشور فتضاء ثرياته الضخمة، ويجلس السلطان وقرابته وحاشيته في أجمل ملابسهم فيستمعون للمدائح النبوية وتلاوة القرآن الكريم ثم يصلون العشاء، ويقدمون الطعام ثم يجلسون للشعراء والمغنين، ويستمر ذلك حتى تقام صلاة الفجر ثم ينصرف الناس"[1] فالاحتفالات بمولد الرسول عليه الصلاة والسلام كانت من أشد مظاهر الثقافة في تلمسان حيث تنافسوا مع بني مرين في هاته الاحتفالات فكانت تقام في قصور سلاطين الدولة الزّيانية الولائم الكبيرة، والتحضيرات الفخمة ولعلّ كل ذلك يرجع إلى سلاطين الدولة الزّيانية الذين ساعدوا في تشجيع هذه الحركة، وكانوا يحضّرون أنفسهم لها بكلّ ما يلزم، ولعلّ أبو حمو موسى الزّياني الثاني واحد من سلاطين هذه الدولة ومن الذين ساهموا في نشر الثقافة فكانت بذلك ليلة المولد النبوي الشريف تقام في بلاطه.

ب– السلطان أبي حمُّو موسى الزّياني بليلة المولد النبوي الشريف:

كان السلطان أبو حمّو يحتفل بمولد الرّسول، وكان بهذا يقتدي بملوك عصره من أهل المغرب والأندلس، وقد ذكرت المصادر احتفالاته وكيف كان يقيم لها التحضيرات اللّازمة " فكان يقيم ليلة المولد النبوي –على صاحبه الصلاة والسلام – بمشورة من تلمسان المحروسة مَدْعاة حفيلة يحشر فيها الناس خاصة وعامة فما شئت من نَمارِق مصفوفة وزَرابيَّ مبثوثة، وبُسَط مُوَشاة، ووسائد بالذهب مُغشَّاة وشمع كالأسطوانات، وموائد كالهلالات، ومباخر منصوبة كالقباب... ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة..."[2].

---

[1] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزّيانية بتلمسان، ص49.

[2] أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفخ الطيب من عصن الأندلس الرطيب، تح: احسان عباس، دار صادر بيروت، (د. ط)، (د، ت)، 513/6.

بالغ أبو حمّو موسى في احتفاله بليلة المولد، فأقيمت له أبهة كبيرة وبُسطت فيها جميع أنواع الخيرات، ونُشِرت فيه مظاهر الترف المختلفة " وكان السلطان أبو حمّو يقوم بحق ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويحتفل بها لها بما هو فوق سائر المواسم، يقيم مدعاة يحشر لها الأشراف والسوقة"[1].

احتفالات أبي حمو موسى لم تكن قصرا على النخبة أو الطبقة الحاكمة بل كانت تضم جميع فئات المجتمع، فمن بعض صور الاحتفال بليلة المصطفى في ذلك العصر أنّ "أعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان، قد لبسوا أقبية الخز الملوّن، وبأيديهم مباخر ومرشات، ينال كلّ منها بحظّه وخزانة المِنْجانة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة، بأعلاها أيكة تحمل طائر فرخاه تحت جناحيه، ويختلُه فيهما أرقم خارج من كُوَّة بجذر الأيكة صاعدا وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية، يصاقب طرفيها بابان مجفآن أطول من الأولى، وأعرض وفوق جميعها دوين رأس الخزانة..."[2] ولعلّ هاته المظاهر هي صورة موجزة عن الأبهة العظيمة التي كان يقام فيها الاحتفال في عهد هذا السلطان، فكانت جلّ المظاهر التي ذكرها هذا المؤلف دليلا على احتفال سلاطين تلمسان بالمولد النبوي الشريف والمبالغة الكبيرة في إحيائه كما كانت تقدم الأطعمة والخيرات الكثيرة " ثم يؤتى آخر اللّيل بموائد كالهلالات دورا، والرياض نورا، قد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشتهيها الأنفس، وتستحسنها الأعين، وتلذّ بسماع أساميها الآذان، ويشره مبصرها للقرب منها، والتناول وإن كان ليس بغرثان والسلطان لم يفارق مجلس الذي ابتدأ جلوسه فيه، وكل ذلك بمرأى منه ومسمع حتى يصلي هنالك صلاة الصبح"[3] أقيمت هذه الاحتفالات في قصر السلطان حيث قدم فيها جميع أنواع الخيرات التي تشتهيها النفس، وتسيل لعاب الناظر إليها وكل هذا كان يقام أمام منظر السلطان، وتستمر الاحتفالات حتى صلاة الصبح "

---

[1] المصدر السابق، 514/6.

[2] محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرّ العقيان في شرق بني زيان، ص163.

[3] المصدر نفسه، ص163، 164.

على هذا الأسلوب تمضي ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم في جميع أيام دولته أعلى الله مقامه في عليين، وشكر له في ذلك صنعه الجميل آمين وما من ليلة مولد تمر في أيامه، إلا ونظم فيها قصيدة في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم أول ما يبتدئ المسمع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه العلي في تلك الليلة نظما"[1] وما ميّز أبو حمّو موسى أنّه كان لا يفوت ليلة إلّا وقد نظم فيها قصيدة في مدح النبي،

وتعد قصائده أول ما يفتتح به الحفل، وتليها قصائد أخرى لأدباء عصره.

بعض ما قاله أبو حمّو موسى في مدح النبي عليه الصلاة والسلام من بحر الطويل:"[2]

قِفَا بَيْن أَرْجَاء القِبابِ وبالحَيِّ وحَيِّ دِيَارَا للحَبِيبِ بِها حَيُّ

وعَرْجٌ على نَجْدٍ وسِلْعٍ ورَامَة وسَائِلَ فَدَتْك النَّفْسُ في الحَيِّ عَنْ دَمِي

وقُلْ ذَلِكَ المضْنَى المعْذِبُ بالهَوَى يَمُوت ويَحْي فَارْثِ لِلَمَيِّت الحَيِّ

وبُثَّ لَهُم وَجْدِي وفَرْطَ صَابَتِي ورْوُ حَدِيثِي فهُو أَغْرَبُ مَرْوِي"

تعدّ هذه الأبيات التي قدمناها نموذجا عن المولديّات في عصر الدولة الزّيانية والتي كشفت الغطاء عن ثقافة السلطان الذي ساهم في نشر الثقافة، وعن قدرته الشعرية منها والنثرية فمولديّاته وكتابه الذي ورّثه لابنه يدلّان على أنه عاش شاعرا وأديبا وسلطانا سياسيا محنّكا سعى لتطوير دولته والرقي بها في مصاف الحضارة والتقدم.

[1] المصدر السابق، ص164.

[2] المصدر نفسه، ص164.

كما ينبغي أن نشير في هذا الصّدد الى سلطان آخر ساهم في نشر الثقافة فسار على نهج أبيه، بل وبالغ في ذلك، ويرجع إليه الفضل في تنشيط الحركة الفكرية والثقافية في تلمسان وقد خلدت المصادر اسمه وأعماله، وهو أبو تاشفين الثاني، وعلى طريقة احيائه لليلة مولده عليه الصلاة والسلام.

3– السلطان أبو تاشفين الثاني واحتفاله بليلة المولد النبوي الشريف :

أ– نبذة عن شخصية السلطان أبو تاشفين الثاني:

من سلاطين الدولة الزيانية، ابن السلطان أبو حمّو موسى الزّياني، تولى الحكم بعد أبيه:" ثم بويع الملك الكامل الأسد الباسل، أشمخ الملوك أنفا، وأعلاهم وأحقهم بالتقدم وأولاهم وأطهرهم وأظهرهم وأقواهم وأقدرهم وأرجحهم رأيا وأنجحهم سعيا، وأصدقهم قولا، وأوسعهم طولا، ذو الحكم العادل، والفضل الشامل، والثناء الطيب، والجود الصيب والسياسة الشاملة، والسعادة الكاملة، الذي لم يزل في معراج العلى يسمو..."[1] نسبت لهذا السلطان، أيضا، مجموعة من الصفات، تنم عن قدرته ومكانته فقد بويع بعد أبيه وتمكن من الوصول إلى كرسي العرش، وقد عُرف بسياسته وعدله.

وقد ذكره صاحب كتاب بغية الرواد ما بحاله كعادته قائلا " كوكب الشرف الوقار، وهلال الكمال المنقاد، ودرة التاج، وفخر الأخذان والإنتاج، فرح دوحة النبؤة والرسالة، وجامع خصلتي الكرم والبسالة، والأخذ بمجامع القلوب، خلقا عظيما وخلقا بهيا"[2] حمل رسالة أبيه وسار على نهجه، وحافظ على دولته، اشتهر بمكانته السامية ومقامه العالي " فسما أمره، وعلا قدره وحلا ذكره، وشمل الرعية خيره، واتسعت مملكته في الأقطار، وطار الثناء عليه كل مطار، ودوخ البربر والعربان، وملك من ملوية إلى جبل الزاب كان أعلى الله مقامه بكر أبيه الخطى

---

[1] المصدر السابق، ص184.

[2] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر علماء بني عبد الواد، 2/ 49.

لديه، وعلقه النفيس العزيز عليه، ولد له بندرومة أيام كونه بها مع أبيه المولى أبي يعقوب زمن انقطاعه فيها للعبادة، أول شهر ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وألف"[1] ففي عصره اتسعت أقطار المملكة، وعُرف بقدره وهيبته أمام أهل وطنه عندما تملك الحكم، وسلك مسلك أبيه وحذا حذوه "فلما تملك كان عين الفضل والجود والكرم، ومعدن النزاهة ورفعة القدر، وعلو الفهم يشره إلى تحضير غرر المعاني، ويتناولها بطبات الصفاح وأسنة العوالي، ويقتدي بأبيه في كل مآثره من القول والفعل، ويحدو على مثال طريقته حذو النعل بالنعل، فسيّر جيوشه من مملكة أسلافه في البعد والقرب، ودوخ ما كان استعصى على غيره بالشرق والغرب"[2] فقد استطاع أن يكون رجلا له هيبة ومكانة بين أهله ورعيته، فكان يعتبر أبه المثل الأعلى الذي يُقتدى به.

واستطاع أن يصل بمملكته إلى أبعد الحدود، فورّث بذلك مملكة لأسلافه ووصل إلى ما لم يستطع غيره الوصول إليه.

ب– احتفال أبو تاشفين بمولد النبوي الشـريف:

سار أبو تاشفين على نهج أبيه، كان يحتفل بالمولد النبوي الشريف، فقرب إليه الشعراء " وكان يحتفل لليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم، بأعظم الاحتفال ونسجه و نسج أبيه في ذلك على منوال"[3] فإحياء ليلة المولد لم تمت بموت أبيه بل تابع المشوار، وبقي يقيم الأبهات العظيمة للاحتفال بسيرة المصطفى، وكانت القصائد التي تعرض يوم المولد تبتدأ بمدح الرّسول لتنتهي إلى مدح الخليفة " ويرفع إليه من الممادح الغر الحجال، ما يزري بأمداح سيف الدولة وشمس المعالي، ويثيب عليها من عظيم النوال بما لم يسمع بمثله في سالف الأحوال، ومن أبدعها ما رفعه إلى حضرته العلية أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري في أول مولد أقامه صدر تملكه مادحا له

---

[1] محمد بن عبد الله التسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان، ص184.

[2] المصدر نفسه، ص186.

[3] المصدر نفسه، ص186.

ولوالده ومعزيا له به"[1] فكانت القصائد المولدية تتضمن مجموعة من العناصر المدحية من مدح الرّسول إلى مدح الخليفة، وتتضمن حتى التعزية، ولعلّ ما قاله الثغري يعد من حر قصائده حين قال في بحر الكامل:[2]

شَرَفُ النُّفُوسِ طُلَّابُها لِعُلَاهَا ولُبَّاسُها التَّقْوَى أَجَلَّ جَلَاهَا

فِيهَا تَنَال العِزَّ فِي الدُّنْيَا إِذَا دَانَتْ بِهَا والفَوْزُ فِي أُخْرَاهَا

فَاخْلَعْ لَبُوسَك مِنْ سِوَى ثَوْبِ التُّقَى مَا لِلنُّفُوسِ حُلَى سِوَى تَقْوَاهَا.

أَوْصِي بِهَا نَفْسِي ومَا مِنْ أُمَّة إِلَّا وخَالِقُها بِهَا أَوْصَاهَا.

وهاته المقطوعة تعدّ نموذجا مصغّرا عن المولديات التي ظهرت في العصر الزّياني، فأبو تاشفين قد بالغ في احتفاله بالمولد النبوي حتى أنّه كان يحتفل بالليلة السابعة للمولد " ولما كانت ليلة سابع المولد المذكور، احتفل لها أيضا أعلى الله مقامه بمثل احتفاله لليلة المولد أو أعظم"[3] فاقت احتفالات أبي تاشفين احتفالات أبيه، فلم تقتصر على ليلة واحدة بل كانت تقام حتى الليلة السابعة، هذه الليلة قد يكون أعظم من ليلة المولد نفسها وكانت قصائد الثغري نموذجا عن الثقافة في ذلك العصر.

قرب أبو تاشفين الشعراء إليه في ليالي المولد فعرضوا فيها قصائدهم ومن بين الشعراء الذين أحيوا هذه الليالي السبع الشاعر الكبير الثغري، ألقى هذا الأخير قصيدة بين يدي السلطان أبي تاشفين ومدحه فيها ومدح وليّ عهده المولى أبو ثابت قائلا من بحر الطويل: [4]

أُعَلِّلُ نَفْسِي والتَّعَلُّلُ لَا يُجْدِي وإِنْ كَانَ أحْيَانًا يَسْكُنُ مِنْ وَجْدِي

---

[1] المصدر السابق، ص187.

[2] المصدر نفسه، ص187.

[3] المصدر نفسه، ص196.

[4] المصدر نفسه، ص196.

فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ والأَمَانِي ضَلّة إِلَى مَعْهَدِ بالأُنْسِ طَالَ بِه عَهْدِي

وأَيَّامُ وَصْلٍ كُلُّهُنَّ أَصَائِلٌ ومَاضِي زَمَان كُلُّه زَمَنُ الوَرْد"

من خلال ما سبق ذكره نلحظ أن سلاطين الدولة الزّيانية قد أحييوا ذكرى المولد النبوي الشريف وأقاموا احتفالات في أبهة، وترف عظيم قدمت فيه شتى صور الحضارة ولعل فترة حكم السلطان أبو حمّو موسى وابنه أبو تاشفين كانت خير فترة جسّدت هاته الاحتفالات " فقد تنافس بنو زيان مع بني مرين في الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف في أبهة زائدة "[1]، كانت الاحتفالات بمولد النبي المصطفى تعدُّ من أكبر المظاهر الثقافية في ذلك العصر.

III- المراكز التعليمية :

تُعدّ المراكز التّعليمية من أهم مظاهر الازدهار الثقافي في مدينة تلمسان، كونها مجمعا للعلماء وطلبة العلم، وحاملة للعلوم المختلفة.

كانت تلمسان حاضرة من أهمّ الحواضر في المغرب الإسلامي، شدّ إليها طلاب العلم الرّحال من كلّ مكان؛ وذلك، لتوفر المؤسسات التعليمة كالمساجد، والزوايا والمدارس.

1- تعريف المسجد لغة واصطلاحا:

المسْجِدُ في اللغة هو كُلُّ مَوضع يُتَعَبَّد فيه[2]، و في الاصطلاح: هو دار عبادة المسلمين تقام فيه الصلوات الخمس المفروضة وغيرها.

وقد ورد لفظ المسجد في القرآن الكريم عدّة مرات، منها قوله تعالى:« إنّما يَعْمُر مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بالله واليَومِ الآخِرِ ».[3]

يطلق على المسجد، أيضا اسم جامع إذا كان كبيرا، لأنّه يجمع النّاس لأداء صلاة الجمعة، "ظهرت لفظة الجامع وصفا تارة حيث يقال: المسجد الجامع، ومضافا تارة أخرى فيقال: مسجد

---

[1] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزّيانية بتلمسان، ص49.

[2] ابن منظور، لسان العرب ، 204/3.

[3] الآية [18] من سورة التوبة.

الجامع، ثم صاروا يطلقون الجامع على المسجد الكبير الذي فيه المنبر وتصلى الجمع وصلاة العيدين فيه مع الصلوات الخمس"[1].

يحتل المسجد مكانة سامية في الشريعة الاسلامية، وفي وجدان المسلم لأنّه مركز ترابط الأمة ووحدتها، ومنبع إيمانها وقوتها، ورمز صمودها....

المسجد هو مكان التّعبّد وموضع العبادة، يجتمع فيه النّاس لأداء الصلوات الخمس المفروضة. وللمسجد دوره الفعّال في جميع مجالات الحياة المختلفة الدّينية منها والاجتماعية والسياسية.

حظي المسجد بعناية خاصة من قبل الحكام والسلاطين، وكذا العلماء والطلبة.

عرفت تلمسان كغيرها من مدن بلاد الجزائر انتشار المساجد التي ساهمت في تنشيط الحركة الثقافية والعلمية، من بينها مسجد أغادير الذي بناه إدريس الأوّل، مؤسّس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، وعندما دخل الى تلمسان وضمها تحت لوائه اختط مسجدها، وبنى منبره الذي كُتب عليه: "هذا ما مرّ به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم في شهر محرم سنة تسع وستين ومائة"[2].

رمّم هذا المسجد بنو زيان في القرن السابع للهجرة، حيث شيّد صومعته يغمراسن بن زيان الذي استأذن في كتابة اسمه عليه:" علم ذلك عند ربي".[3]

ومن أعظم المساجد في تلمسان المسجد الذي بناه يوسف بن تاشفين المرابطي سنة 473هـ، ثمّ عدّ له ابنه عليّ بن يوسف بعده سنة 530هـ، ويغمراسن بن زيان ما بين سنتي (665هـ 668هـ)[4].

اعتنى بنو زيان ببناء المساجد وتشييدها، وجلب العلماء للتدريس بها، وإسناد إليهم الإمامة والخطابة، ومثال ذلك مسجد ابني الامام الذي بناه ابو حمّو موسى الأوّل.

---

[1] محمد بن أحمد بن صالح الصالح، المسجد جامع وجماعة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2000، ص

[2] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، صور للطباعة و الوراقة، الرباط،(د. ط)، 1972، ص50.

[3] يحي ابن خلدون، بغية الرواد، ص207.

[4] محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان ، ص126.

وكما تطرقنا سابقا إلى أنّ تلمسان كثيرا ما سقطت في أيدي المرينيين، وعلى الرّغم من سيطرة بنو مرين على تلمسان إلّا أنّهم ساهموا في نشر الثقافة، وبناء المؤسسات التعليمية والتربوية حيث أنشأ أبو الحسن المريني عدّة مساجد كجامع القصبة الذي قال فيه ابن مرزوق الخطيب بأنّه كان يشتمل على محاسن لم تجتمع في مثله، من حسن وصفه، وجمال شكله، وكذلك جامع " سيدي أبو مدين" الذي بُني في عبّاد تلمسان، اتّصف هو الآخر بالحسن.[1]

إذا ساهم المسجد مساهمة كبيرة في نشر العلم والوعي الثقافي بين النّاس، وتعدّ المساجد المؤسسة الثانية بعد الكتاتيب، حيث تأتي مرحلة التّعليم في المساجد بعد استكمال مرحلة التعليم الأوّلي في الكتاتيب، ففي هذه المؤسسة يتعلم الطالب الكتابة والقراءة، وحفظ القرآن الكريم، ومبادئه.

أمّا في المساجد فيتخصّص الطلبة في علم معيّن وعلى يد مشايخ كبار ذاعت شهرتهم في الآفاق، وما يلاحظ على طلبة العلم في تلمسان خلال العصر الوسيط اهتمامهم بعلم الفقه، ودراسته والتعمّق فيه، أي أنّهم ركّزوا اهتمامهم على العلوم النّقلية لأنّهم بحاجة ماّسة الى فهم الدين الإسلامي ومبادئه.

كما حظيت العلوم العقلية باهتمام العلماء وطلاب العلم على حدّ سواء، ولكنّها لم ترتق إلى درجة العلوم النقلية (القرآن، علم التفسير، علم الحديث، علم الفقه).

وينبغي أن نشير في هذا الصدد إلى دور الحكام البارز في تنشيط الحركة الثقافية في تلمسان من خلال جلبهم للعلماء الكبار للتدريس بمساجدهم، فكانوا يحضرون مجالسهم، ويستمعون إلى دروسهم.

2- تعريف الزاوية لغة واصطلاحا:

كلمة الزاوية لغة مشتقة من الفعل انزوى، فنقول:" انزوى القَوْم بعضُهم إلى بعض إذا تَدانوْا وتضَامُّوا والزَّاوية واحدة الزّوايا... وزويت الشيء إذا جمعته وزاوية البيت: رُكنُه"[2]

---

[1] محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا ابي الحسن، تح: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،ط1، 1981، ص402، 403.

[2] ابن منظور، لسان العرب، 364/4، 365.

فالزاوية هي المكان المعزول في ركن من الأركان، وتكون جامعة للعباد الذين يجمعهم رابط واحد هو حبّ الله ورسوله، ويتّخذون من هذه الزاوية مكانا للتعبد والاعتكاف.

أمّا اصطلاحا فتعني مكانا متسعا يسكنه الصوفية، وتكون بمثابة مدرسة دينية، ودارا لضيافة عابري السّبيل، تؤدّي رسالتها بجوار المسجد بكفاءة واقتدارا: "تتكون من مساحة أصلية للصلاة ... حجرة أو أكثر لتحفيظ القرآن، ومكتبة لتعليم مبادئ الإسلام، كما يلحق بها مسكن شيخ الزاوية وضيوفه من الطلبة او المسافرين"[1].

إن مفهوم الزّاوية يطلق على المكان المنعزل عن العالم الخارجي الذي يجتمع فيه المتعبدون ويؤدّون طقوسهم الدينية من صلاة وعبادة وتلاوة الذّكر الحكيم، وقد ساعدت هذه الزوايا على نشر الثقافة العربية الإسلامية، ونشر الطرائق الصوفية.

ساهمت الزّوايا إلى جانب المساجد في نشر الثقافة، والتعليم، وقد تغيّر مفهوم الزّاوية من معناه القديم الذي يعني المرابطة والجهاد في الثغور إلى معنى جديد ألا وهو الانزواء والانفراد للتعبّد، والتنسك والتزهد.

حظيت الزوايا هي الأخرى باهتمام كبير من قبل السلاطين، وبخاصة حكام الدولة الزّيانية الذين أنفقوا أموالا طائلة عليها وذلك من خلال إكرام شيوخها، وكسوة طلبتها.

حيث كان مشايخ الزّوايا محلّ احترام الحكام وتبجيلهم، فكانوا ينالون البركة منهم فسعوا جاهدين إلى إرضائهم، والتماس الدعاء منهم.

جلّ السلاطين شيوخ الزّوايا، فعاملوهم كآباء لهم، فقدّروهم حقّ قدرهم، وعاملوهم معاملة حسنة في حياتهم، وحتى بعد مماتهم، مثلما فعل السلطان يغمراسن بن زيان مع كثير من المتصوفة.[2]

كما بنى أبو حمّو موسى الثاني زاوية الأمير أبي يعقوب على ضريح والده بجانب المدرسة اليعقوبية، وكذا زاوية الحسن بن مخلوف الملقب بأبركان بتلمسان.[3]

---

[1] عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، المسجد رمز الصمود والتحدي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 2002، ص95.

[2] يحي ابن خلدون، بغية الرواد، ص122.

[3] محمد بن عبد الله التسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرّ والعقيان، ص179.

إذا لعبت الزاوية، دورا مهما في تنشيط الحركة الثقافية في تلمسان حيث كان يقرأ فيها القرآن، ويردّد فيها الطلبة الأذكار، ويسبحون ليلا ونهارا، حيث كان لكل زاوية شيخ ومردّدين يلتقون حوله، ويقضون الليل كله في تلاوة الذكر الحكيم.[1]

3 – المـدارس:

تعرضت فيما سبق ذكره إلى بعض المظاهر الثّقافية في تلمسان، فسافرت بذلك عبر الزمن ودخلت إلى بلاط السلاطين الزّيانيين لأشهد بذلك تنشيطهم للثقافة وتشجيعهم لها، كاحتفالاتهم بالمولد النّبوي، التي كانت تقام في بحبوحة من الترف، وكان يحضرها أهل الأدب، منشدين قصائد وموشحات نبوية بديعة انتقلوا فيها من غرض إلى غرض، ولعلّ الفضل في هذه الرّحلة يعود إلى الكتب النثرية المختلفة، التي استطاعت أن تعطينا صورة عن ثقافة كانت سارية في عصر من العصور في المدن الجزائرية، أما الآن سنتعرّف على نوع آخر من المظاهر الثقافية في مدينة تلمسان، تمثلت في المدارس التي كان لها الفضل في ظهور مجموعة من الأدباء والعلماء الأجلّاء الذين ذاع صيتهم في الأقطار الإسلامية المختلفة من خلال ابداعاتهم ومؤلفاتهم، لذلك وجب علينا أوّلا الوقوف عند مصطلح المدرسة، واستكشاف معانيها اللّغوية والاصطلاحيّة، ثم نتحدث عن المدارس التي ظهرت في مدينة تلمسان ومدى مساهمتها في تنشيط الثقافة.

1– تعريف المـدرسة:

أ– لغـة:

جاء في لسان العرب في مادة (د.ر.س) " دَرَسَ الكِتابَ يدرسُهُ درسًا ودِراسَةً ودَارسَه وذلك كأنه عائده حتى إنقاد لحفظه، وقد قُريء بهما، وليقولو دَرسْتَ: وليقولوا دَارسْت، وقيل دَرسْتَ قرأت كتب أهل الكتاب ودَارسَة: ذاكرتهم وقريء: دَرَسَتْ ودُرسَتْ أي هذه أخبار قد عفت وامحَتْ ودَرُسَتْ أشد مبالغة، والمِدْراسُ والمِدْرسُ: الموضع الذي يدرس فيه، والمدْرَسُ: الكُتَّاب، وقول لبيد: قَومٍ إلَّا يَدْخُل المدَارِسَ فِي الرَّحْمَةِ إلَّا بَرَاءةً واعْتذَارًا"[2]

---

[1] المصدر السابق، ص248.

[2] ابن منظور، لسان العرب، 79/6.

يتضح من هذا التعريف أنّ المدرسة هي موضع القراءة والكتابة، والدرس بمعنى الحفظ والإعادة.

وجاء في الوسيط: "المدْرسَة، مَكان الدَّرس والتّعليم، وجماعة من الفلاسفة أو المفكرين، أو الباحثين تعتنق مذهبا معينا أو تقول برأي مشترك (مج. ويقال هو من مَدْرَسَة فلان على رأيه ومذهبه"[1] فالمدرسة هي المكان الذي تعرض فيه الدروس، وينسب الشخص الى مدرسة يعينها، أي إلى مذهب واتجاه محدد.

ب- اصطلاحا:

المدرسة هي المكان الذي يجتمع فيه طلاب العلم للقراءة والتعلم، أما اصطلاحا كما يعرّفها ابراهيم ناصر فهي" المؤسسة التي أنشأها المجتمع لتقابل حاجة من حاجاته الأساسية، وهي تطبيع أفراده تطبيعا اجتماعيا، ليجعل منهم أعضاء صالحين"[2] فهي ضرورة من الضروريات الأساسية في المجتمع تعمل على تحسين الأوضاع الاجتماعية للأفراد.

وقد كانت المدرسة في العهد الزّياني " مؤسسات تطور الحركة العلمية، التي كانت تؤطرها الحلقات الدراسية بجامع تلمسان الأعظم والمساجد المحيطة به، وتخرّج منها عدد كبير من العلماء والأعلام والفقهاء والأدباء المبرزين حتى غزت مساجدها ومدارسها معيار يقاس به نمو الحركة العلمية ومؤشرا على مدى ازدهار الثقافة والعلوم والفنون والآداب"[3] تعدّ المدارس دليلا على الازدهار العلمي حيث ساعدت على نشر العلم في أقطار تلمسان، فتخرّج منها عدد من الطّلبة كما كانت، صورة واضحة عن تطور الثقافة ورقيها.

فكانت المدرسة المكان الذي يلتقي فيه أهل العلم والعلماء لتبادل العلوم والمعارف، وفي هذا الصّدد سنتحدث عن المدارس التي يلتقي فيها أهل العلم والعلماء لتبادل العلوم والمعارف، ونخص بالذكر منها التّلمسانية وظهورها في عصر الدولة الزّيانية، حيث عبرت عن فضل السلاطين في نشر

---

[1] معجم الوسيط، ص270.

[2] مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص، الملتقى الدولي الأول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيو ثقافية في المجتمع الجزائري، ص17.

[3] تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز في الحركة الوطنية ثورة اول نوفمبر ،1954 طبعة خاصة، وزارة المجاهدين، ص135.

الثقافة والعلم، وتوجيه الرعية إلى الاهتمام بالعلوم المختلفة فجعلوا من دولتهم دولة ثقافة وحضارة بلا منازع دلّت عليها كثرة المراكز التعليمية فكانت بذلك تلمسان قطبا ثقافيا يضم مجموعة من المدارس، ظهرت في تاريخ الدولة الزّيانية، ولعلّ ابن الأحمر، أشار إلى عددها باختصار، وذكر بأنّه توجد في تلمسان خمس مدارس حيث قال "ويكفي أن نذكر المدارس الخمسة الكبرى التي أنشأت في أيام تلك الأسرة الطويلة العمر"[1] عمل السلاطين الزّيانيين على تقريب العلماء منهم، وتشجيعهم ببناء مدارس لهم يلقون فيها دروسهم ومحاضراتهم، كانت تلمسان محطة لإلتقاء العلماء والفقهاء، فظهرت بها مجموعة من المدارس أهمها:

2- أهم المدارس بتلمسان في العهد الزياني:

أ- مدرسة ابني الإمام:

بناها السلطان أبو حمّو موسى الأول " الذي كان صاحب أثار جميلة، وسيرة حسنة محبّا في العلم وأهله، وردّ عليه بعد موت يوسف بن يعقوب الفقيهان العلمان الجليلان: أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام، فلم ير ما يؤدي به شكرا لله على النعمة التي منّ الله عليه بها، من قتل عدوّه وتعجيل الفرح إلّا الاعتناء بالعلم، والقيام وبحقه، فأكرم مثواهما، واحتفل بها وبنى لهما المدرسة التي تسمى بهما"[2] تعدّ مدرسة ابني الإمام أول مدرسة ظهرت في تلمسان قام بتشييدها السلطان أبو حمّو موسى الزّياني تكريما للفقيهين: أبو زيد وأبو موسى، وهما" فقيهان من بلدة برشك، سافرا إلى المشرق فحصّلا علوما شتى نقلية وعقلية ورأسا بدمشق، وكان لهما بالشّام والحجاز، ومصر صيت عظيم ثم دعتها دواعي الأوطان بالرجوع إلى المغرب، فأعرضا عن بلدتهما، وتوجها إلى تلمسان، فكانت لهما بها الريّاسة، ونشرا بها من العلوم ما بقيت آثاره إلى الآن"[3] كانا عالمين جليلين عُرفا في بلاد المغرب والمشرق العربي، وكانت لهما شهرة بالغة في ميادين العلوم المختلفة، شهدت على ذلك آثارهم التي بقيت إلى يومنا، فمدرسة أولاد الإمام تعدّ أوّل مدرسة في تاريخ الدولة الزّيانية، كرم بها أبو حمّو الفقيهان الجليلان، وذلك بأنّه: "رفع منزلتهما، ثم ابتنى لهما المدرسة المسماة باسمهما وموقعها داخل

---

[1] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيّانية، ص48.

[2] محمد بن عبد الله التسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرّ والعقيان، ص139.

[3] المصدر نفسه، ص139.

باب كشوطة، وكانت لهما رئاسة، وحظوة ومقاما محفوظا في مجالس الملوك، ولهما في تلمسان خلق صالح، ينتحلون العلم وقد وصل بعضهم إلى مراتب التدريس، والفتيا في النوازل، توفي أبو زيد عبد الرحمن في سنة 743هـ، أما أبو موسى عيسى فقد توفي في سنة 749هـ"[1]

كانت لهما مكانة رفيعة وقدر عال بين الملوك، فقرّبوهما إليهم وكُرّما بعد موتهما بهذه المدرسة، مخلّفين وراءهما سلف صالح من الطّلاب وأهل العلم.

تعد هذه المدرسة، من المنشآت العمرانية للسلطان أبي حمّو موسى الزّياني الأوّل، فقد عُرف عن هذا الأخير بتشجيعه للحركة العلمية بتلمسان، ومنشآته العمرانية، "المدرسة الواقعة غرب مسجد فخم وذو منارة أنيقة، كان ينسب إلى العالمين الجليلين ابني الإمام، وكانت هذه المدرسة تدعى المدرسة القديمة أو مدرسة ابني الإمام"[2].

فهذه المدرسة قد عرفت باسمين، وكان موقعها بالقرب من المسجد وكانت من الآثار الحضارية لمدينة تلمسان.

ب- المدرسة التاشفينية:

شُيّدت في تلمسان بناها عبد الرحمن بن تاشفين، وهي "المدرسة الجليلة القديمة النظير، التي بناها بإزاء الجامع الأعظم، ما ترك شيئا مما إختصت به قصور مشيدة إلّا وشيّد مثله بها"[3] اهتم سلاطين الدولة الزيانية بالعلم والعلماء، فشيّدوا المدارس وتفنّنوا في بنائها، حيث جلبوا لها أفخر مواد البناء، فهذه المدرسة أحد الآثار الحسان للسلطان أبي تاشفين "فقد كان له بالعلم وأهله احتفال، وكانوا منه بمحل تهمّم واهتبال، وفد عليه بتلمسان العالم المتفنن الجماعة، أبو موسى عمران المشذالي، أعرف أهل عصره بمذهب مالك، فأكرم نزله وأدام المبرة به، والحفاية بجانبه وولّاه التدريس بمدرسته الجديدة"[4]، قرّب هذا السلطان إليه العلماء والفقهاء وأغدق عليهم بالعطاء، وكان بذلك من السلاطين الزيانيين الذين سعوا إلى نشر الثقافة في تلمسان.

---

[1] بوزيان الدراجي، أدباء وشعراء من تلمسان، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، (د، ط)، 2011، ص201.

[2] محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ص 74.

[3] التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان، ص140.

[4] المصدر نفسه، ص140.

تحدث عن هذه المدرسة المقّري في نفح الطيب وعدّها، من أروع التصاميم في مدينة تلمسان حيث قال: "قلت: قد تذكرت هنا، والشيء يذكر، ما رأيته مكتوبا على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان، التي بناها أمير المسلمين ابن تاشفين الزّياني، وهي من بدائع الدنيا، (في البسيط):[1]

أُنْظُر بِعَيْنَيك بَهْجَتي وسَنَائِي وبَدِيع إتْقَانِي، وحُسْنَ بِنَائِي

وبَدِيعَ شَكْلِي، واعتَبِرْ فِيمَا تَرَى مِنْ نَشْأَتِي بَلْ مِنْ تَدفُّق مَائِي

جِسْمٌ لَطِيفٌ ذَائِبٌ سَيَلاَنُه صَافٍ كَذَوْبِ الفِضَّة البَيْضَاء

قَدْ حَفَّ بِي أَزْهَارَ وشَيٍ نُمِّقَت فَغَدَت كَمِثْلِ الرَّوْضِ غِبَّ سَمَاءِ

رمّم هذه المدرسة فيما بعد أبو العباس أحمد العاقل.

ج- المدرسة اليعقوبية:

بنى هذه المدرسة السلطان أبو حمّو موسى الثاني، وسمّاها باليعقوبية، بناها بعد وفاة والده أبا يعقوب يوسف "الذي كان مقيما في مدينة الجزائر بعد فتحها، فوافته المنية بتلك المدينة في أوائل شعبان من سنة 763هـ، فجهّز ونقل تلمسان في جنازة مهيبة، ولما وصل جثمانه استقبله أبو حمو بحزن وخشوع، ثم دفنه في رياض موجود بباب إيلان، ونقل جثماني أخويه: أبي سعيد وأبي ثابت إلى جواره"[2] شيّد أبو حمّو الثاني المدرسة اليعقوبية تكريما لوالده وبرّا به، وكانت هذه المدرسة ضمن اهتمامات هذا السلطان بالعلم والعلماء، حيث سعى إلى نشر الثقافة في تلمسان من خلال مظاهر مختلفة فسعى إلى الاهتمام بهذه المدرسة " فقد سنها هو بنفسه عام 763هـ، وحضر دروسها الافتتاحية"[3]، كانت هذه الأخيرة ضمن اهتمامات هذا السلطان فأشرف بذلك على افتتاحها.

عمل هذا السلطان على تشجيع العلم والثقافة في بلاده، من خلال إقامة مراكز ومدارس لطلبة العلم، ولعلّ هذه المدرسة تعد تكريما لوالده، ولفضله العظيم وقد أولى عناية فائقة بهذه المدرسة، واهتم بها اهتماما شديدا "فقد احتفل بها وأكثر عليها من الأوقاف، ورتّب فيها الجرايات، وقدّم للتدريس فيها الشريف أبا عبد الله المذكور، وحضر مجلس إقرائه فيها جالسا على الحصير، تواضعا

---

[1] المقري، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 47/6.

[2] بوزياني الدراجي، أدباء وشعراء من تلمسان، 1/ 258- 259.

[3] محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان، عاصمة دولة بني زيان، ص74.

للعلم، وإكراما له فلما انفض المجلس، أشهد بتلك الأوقاف وكسا طلبتها كلهم، وأطعم النّاس، وطول الله مدته حتى ختم السيد أبو عبد الله تفسير القرآن العزيز فيها، فاحتفل أيضا لحضور ذلك الختم وأطعم فيه الناس، وكان موسما عظيما"[1]. تميّز أبو حمّو موسى بشدّة التواضع وإكرامه للعلم والعلماء، وتشجيعهم وكسوتهم وإطعامهم وهذا من فضله وحسن خلقه.

أمّا فيما يخص فترة السيطرة المرينية على تلمسان، فقد ظهرت هناك مدارس مختلفة أنشأها السلاطين المرينيين في أثناء تواجدهم بتلمسان.

د- مدرسة العبّاد:

بُنيت في تلمسان، خلال فترة الاحتلال والتواجد المريني فيها. أسسها أبو الحسن المريني بالعُبّاد وهي "نموذج من جملة المدارس المشيّدة بتلمسان أثناء القرون الوسطى، وموقعها بغرب جامع سيدي أبو مدين، تبعد عنه بنحو سبعة أمتار، وهي مبنية فوق ربوة صغيرة يصعد إليها بخمس عشرة درجة"[2] تعلّق السلاطين بالأولياء والزهاد، فأكرموهم وشيدوا مساجد قريبة من أضرحتهم، كهذه المدرسة التي بنيت على قبر الولي الصالح أبي مدين شعيب "وتوجد بهذه المدرسة خطوط أندلسية تتضمن قصيدة في مدح مشيد هذه المدرسة وذكر تاريخ تشييدها، من بحر الوافر"[3]

بَنانِي كَيْ أُقِيم لَدَى دُنْيا الإسْلَام أَمِيرُ المسْلِمِين
أَبُو الحَسَن الذِي فِيهِ المزَايَا تَفُوقُ النَّظْمَ بِالدَّمِ الثَّمِين
إمَامٌ لَا يُعَبِّر عَنْ وَصْفِ بِمَا أُجْرَى بِه الأَعْمَالُ دِينَا
سَلِيلُ أَبِي سَعِيد ذِي المعَالِي أَقَرّ إلَيَّ الإمَامُ بِهَا عُيُونَا
وقَدْ سَمَّاهَا خَالِقُه عَلِيا فَأَعْلَاه وأَعْطَاهُ يَقِينَا
أَبَانَا بالمصْلِحَات مِنْه دِينَا وإِيمَانًا يَكُونُ لهُ مُعِينًا
لشَهرِ رِبِيعِ الثَّانِي لِسبْعِ خُلُّون مِنَ السِّنينَ وأَرْبَعِينَا
إلى سَبْعِ مِئَينِ فَدَامَ سَعدٍ مُحولُه مَقَاصِدَه فُنُونَا

---

[1] التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في شرف بني زيان، ص100.

[2] محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ص 257.

[3] المصدر نفسه، ص259.

وَكَانَ لَهُ الإلهُ عَلى اتِّصَالٍ عَلى مَرْضَاتِهِ دَأبًا مُعِينًا

أشادت هذه القصيدة ببباني المدرسة، الذي بالغ في اتقانها، فذكرت صفاته المختلفة، وكانت المدرسة، أحد أهم الركائز الأساسية للنهوض بالثقافة، ونشر الوعي بين الناس، ومما يمكننا قوله أيضا أنّ سلاطين بنو مرين سعوا جاهدين لبناء المدارس في تلمسان المحتلة، وتشجيع الحركة الفكرية والأدبية.

هـ– مدرسة سيدي الحلوي:

أسّس هذه المدرسة، أيضا، المرينيين، وسميّت باسم ولي صالح يدعى الحلوي، وهو "الرجل الصالح، والعالم الصّوفي، أبي عبد الله الشوذي، الذي تولّى قضاء إشبيلية، ثمّ انتقل إلى تلمسان، واستقر بها، فلُقب بالحلوي، لأنّه صار بها يصنع الحلوى، ويبيعها للصّبيان، وكانت وفاته عام 737هـ"[1].

شيّد هذه المدرسة "السلطان أبو عنان سنة 754هـ"[2]. كانت المدارس لصيقة بالمساجد، باعتبار أنّ المساجد هي الأماكن التي يتلقّى فيها الطلبة تعليمهم الأوّل أمّا المدارس، فهي بمثابة جامعات كبرى يؤمها الطلبة بعد استكمال تعليمهم الابتدائي "وهذه المدرسة كانت تقع بالقرب من جامع سيدي الحلوي، وكانت تقع أمامها أيضا زاوية"[3] فقرب المدارس من الجوامع، وتسميتها بأسماء الأولياء الصالحين، إنّما يدل على إيمان السلاطين بعظمة هؤلاء المتصوفة، وتكريما لمثواهم، فسميت المساجد والزوايا بأسمائهم، تخليدا لهم، فتبقى سيرهم محفوظة في الذاكرة "فهذه الجوامع والمساجد، والضرائح، و المدرسة في وضعها، وفخامة زخرفتها ونضارة منظرها آية في الإبداع وكمال الذوق إذ فيها من الأعمال الفنية، ما يقف أمامه الإنسان باهتا مدهوشا"[4].

فبناء المدارس والجوامع، وغيرها والاعتناء بزخرفتها يدل على اهتمام السلاطين بمراكز العلم والدين والأولياء الصالحين، وتخليدا لذكرى من رحلوا، وتكريما لأهل العلم والعلماء فكانت المدارس

---

[1] المرجع السابق، ص260.

[2] تاريخ الجزائر في العصر الوسيط، من خلال المصادر، ص177.

[3] محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ص 262.

[4] المرجع نفسه، ص264

في تلمسان، تعبّر عن الجهد الذي بذله السلاطين وتكريم العلماء، حيث حضر بعض السلاطين لحلقات الدروس التي كانت تلقى في المدارس لإرساء قواعد العلم، ومن تواضعهم كانوا يجلسون على الحصير، فهؤلاء السلاطين أكرموا مثوى الطلبة فقدّموا لهم الملابس الجديدة والمأكولات الطيبة، وأغدقوا على المدارس بالأموال، فكانت تنظم إليها الجريات وغيرها.

إذا كانت مساهمة السلاطين فعّالة في نشر الثقافة والعلم، كما كانت تلمسان تشهد مظاهر أخرى للثقافة بين الاحتفال بالمولد النّبوي وإقامة المدارس فقط بل كانت توجد فيها المكتبات والجوامع والمساجد المختلفة.

V- أعلام تلمسان:

كانت تلمسان، ملتقى لأهل العلم والعلماء، فكما يقول القلصادي "أدركت تلمسان كثيرا من العلماء والصلحاء، والعبّاد، والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافعة، وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرقة وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية"[1] فتلمسان محطة التقاء أهل العلم والعلماء، كثرت بها العلوم المختلفة وظهر بها جملة من العلماء والأدباء، وأهل الفصاحة والبيان.

وقد تحدث ابن الأحمر عن هذه المدينة باعتبارها نقطة التقاء العلماء فقال، داعما رأيه بما قاله البكري " ويحدثنا البكري أنّ تلمسان كانت دائما بلد علم، وعلماء، ومركز سنّة وجماعة، وكان بنو زيان من رعاة العلوم، فاستقدموا أصل العلم والأدب وبخاصة الشعراء وأحاطوا أنفسهم بالفقهاء على مثال ما كان يفعله جيرانهم، ومنافسوهم من بني مرين وبنو وطاس"[2]، كانت تلمسان تضاهي جيرانها في مختلف المجالات، كما تعدُّ من المراكز الحضارية التي لها قدرها بين الدول الإسلامية، فكثرت بها العناصر الحضارية المختلفة، وكانت نقطة استقطاب للعلماء، والنّساك والزّهاد " فكثر فيها أهل التّصوّف، والصلحاء والعباد، ولا غرابة في ذلك، ففي بلدة من بلاد منطقة تلمسان، وهي بلدة العباد، استقر أبو مدين شعيب ولي المغرب الأكبر"[3] لقد عظم شأن هذه المدينة وأصبحت

---

[1] أبو الحسن القلصادي، رحلة القلصادي، ص95.

[2] ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزّيانية، ص48.

[3] المصدر نفسه، ص48.

من المراكز الثقافية البالغة الأهمية في بلاد المغرب العربي فعلى قدرها، وظهر بها جملة من العلماء الذين ارتأينا أن نتحدث عن أشهرهم.

1- أبو مدين شعيب:

من رجال التصوف كان يقطن بالأندلس، ثمّ رحل إلى تلمسان وهو " الشيخ الولي قطب العارفين وشيخ المشايخ، أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري منشؤه قطيانة من قرى إشبيلية"[1]. توفي بالعبّاد، وفيه دفن " من صدور الأولياء الأبدال جمع بين الشريعة والحقيقة، أقام هدايا ودعايا للحقّ وقصدت زيارته من جميع الأقطار، وشهر بشيخ المشايخ"[2] عُرف هذا الرجل بصدق دعواه القائمة على الحقّ "فقد جاز البحر إلى المغرب فأخذ بفاس عن الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم، ولبس الخزفة عن الشيخ أبي عبد الله الدقاق، وسلك على يد شيخ المشايخ أبي يعزى إلى إن وصل وأدرك وحقق لمشرق بإذنه. واستوطن بجاية فاشتهر بما خبره وعلا في مقام الولاية صيته فعض لمكانه يعقوب المنصور بن يوسف العسري بن عبد المؤمن بن علي وأرسل عليه"[3]، ذاع صيت أبو مدين في الآفاق، فرحل من بلاده إلى المغرب، وأخذ عن علمائها، فلما عرف به المنصور بن يوسف العسرى أرسل في طلبه، وكان يدرك أنه لن يلقاه، "فسنة أربع وتسعين وخمسمئة، شق ذلك على تلامذته، فقال لهم أنني لا ألقاه، فلما بلغ تلمسان أعجبته خارجها، قرية فسأل عن اسمها، فقيل العبّاد، فقال أي موضع هو للرقاد، فمرض يومئذ ومات، ودفن هناك"[4]، فلما انتشرت شهرته بين النّاس أرسل يعقوب المنصور إليه فقال انه لن يلقاه، ووصل إلى قرية العباد، وهناك توفي اشتهر بعلمه وتقواه بلغت أقطار العالم الاسلامي بأسره، حتى وصلت إلى السلاطين كما عُرف هذا الأخير بكرماته.

---

[1] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر علماء بني عبد الواد، ص63.

[2] أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف لرجال السلف، الجزائر، 1906مطبعة فونتانة الشرقية ،الجزائر، ص112.

[3] يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر علماء بني عبد الواد، 63/1

[4] المصدر نفسه، 63/1.

2- ابنا الإمـام:

اسم أكبرهما أبو زيد عبد الرحمن، واصغرهما أبو موسى، وهما شيخان ذاع صيتهما في تلمسان، وكان قريبان من السلطان أبي حمّو موسى الزّياني الثّاني " ابنا الفقيه الخطيب أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الإمام، أهل برشك، إمامان مشهوران بالعلم والريّاسة، ولهما ببلادهما سلف صالح"[1]، عرف هذان العالمان في بلادهم بالعلم فوسعت شهرتهما أقطار الوطن العربي " وقد نزلا تلمسان أيّام السلطان المرحوم أبي حمّو موسى ... فأكرم مثواهما، وابتنى لهما المدرسة المسمّاة بهما... فرأسا النّاس وجالسا الملوك على هدى العلماء الصّالحين، وسمّوا الرؤساء المكرمين، رحمة الله عليهما ولهما بتلمسان خلف كثير، ينتحلون العلم كبيرا وصغّيرا، بلغ كثير منهم مقام التدريس والفتيا نجابة درس، ونظر، وقبراهما، خارج باب الجياد مستجاب الدعاء"[2]، وتكريما لهما بنى أبو حمّو موسى مدرسة في تلمسان سمّاها مدرسة ولديّ الإمام وصدرهما للتدريس فيها، بلغا مراتب عليا فذاع صيتهما في الآفاق، فأقبلت عليهم طلبة العلم من كلّ حدب وصوب.

3- ابن مرزوق الجـدّ:

علامة فقيه، ذكره ابن مريم في البستان فقال " شمس الدّين المشهور بالجدوب الخطيب شارح الشفاء والعمدة في الحديث"[3] عرّفنا صاحب البستان بشخصية هذا العالم الجليل من أهل تلمسان، ويفرّق بينه وبين حفيده، فأرود لنا كل واحد ورتبته بقوله الحفيد والجدّ.

فابن مرزوق الجدّ هو كما ذكره ابن خلدون في رحلته " من أهل تلمسان، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مدين بالعباد، ومتوارثين خدمة تربته، من لدن جدّهم خادمه في حياته، وكان جده الخامس أو السادس واسمه أبو بكر بن مرزوق، معروف بالولاية فيهم، ولما هلك دفنه يغمراسن بن زيان، في التربة بقصره ليدفن بإزائه"[4] كانت له مكانة عالية بين علماء عصره، كما حظي باهتمام

---

[1] المصدر السابق، 1/ 71. 72.

[2] المصدر نفسه، 1/ 73.

[3] ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص174.

[4] عبد الرحمن ن محمد الحضرمي الاشبيلي، رحلة ابن خلدون عارضها بأصولها وعلة حواشيها، محمد بن تاويت الطنجي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص60، 61.

السلاطين، وتقديرهم له" ولد بتلمسان، سنة عشر وسبعمائة، وارتحل مع أبيه إلى المشرق، ثمّ رجع إلى القاهرة، وأقام بها ... وبرع في الطب والرواية، وكان خير الخطين، عند رجوعه تلمسان... ولّاه السلطان أبا الحسن خطابة المسجد، مكان عمّه ... وقربه إليه، وكان يلازم الشيخين ابني الامام، ويأخذ نفسه بلقاء الفضلاء والأكابر والأخذ عنهم والسلطان في كل يوم يزيده رتبة... وكان يستعمله في السفارة عنه إلى صاحب الأندلس... "[1]، برز نجم هذا الشيخ في مجموعة من العلوم كالطب والرواية ... فعلى قدره وعظم شأنه وذاع صيته في أقطار المعمورة، فعرف في مشارق الأرض ومغاربها، وكان خطيبا ممّا جعله مقرّبا من السلطان الذي رأى فيه حسن خطابته فقربه إليه، وكان رجلا عالما يلازم أهل وشيوخ العلم، ويأخذ عنهم المعارف المختلفة، كما التف حوله طلبة العلم من كلّ مكان للنهل من ينابيعه.

4- عفيف الدين التلمساني:

من أشهر شعراء تلمسان " الأديب البارع كان يدعي العرفان، ويتكلم عن إصلاح القوم... كان حسن العشرة كريم الأخلاق، له حرمة ووجاهة خدم في عدة جهات"[2].

عرف بين أقرانه بكونه أديب بارع، له وقار وهيبة بين النّاس فهو " أديب ماهر، جيّد النظم تارة يكون شيخ صوفية، وتارة كاتبا وتارة مجردا"[3]، كما كان من رجال التصوف في تلمسان فمن حرّ ما قاله عفيف الدين التلمساني الذي كانت أقواله وأفعاله على طريقة المتصوف ابن عربي قوله (الطويل)[4]:

وقَفنَا علَى المعْنىَ قدِيمًا فمَا أغْنىَ ولا دَلَّت الألفَاظُ مِنهُ عَلى مَعنَى
وكَمْ أَمسيْنَا وبِتنَا برِبعِه حَيارَى وأصْبحْنَا حَيارَى كَمَا بِتْنَا
فلَمْ نرَ للغِيدِ الحِسانِ بِهِم سَنَى ولَولَا النَّصارَى ما ثَمِلْنَا ولَا مِلْنَا

---

[1] المصدر السابق، ص61.

[2] محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص251.

[3] المصدر نفسه، ص252.

[4] المصدر نفسه، ص252، 253.

كان عفيف الدين التلمساني صوفيا، وهذا ما دلّت عليه أبياته، التي كانت في التصوف والتنسك والزهد.

5- ابـن خميس:

شاعر وفقيه ومتصوف وهو " أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس شاعر المئة السابعة متصوف عارف، متطور دبّاج لا نطير له"[1] عرف بشعره، وبمكانته بين أدباء عصره التقاه العبدري في أثناء مروره بتلمسان، فترجم له وأورد له مقاطع شعرية مختلفة في أغراض متنوعة من شعره قوله(الطويل)[2]:

أنْبتُ ولكِنْ بعْدَ طُولِ عِتابْ وبعْدَ رَجاجٍ ضاعَ فيه شَبابْ

وما زِلتُ والعليَا تُغنِي غَرِيمَهَا أعلّل نفسِي دائمًا بمَتانْ

وهيهَاتَ مِن بَعدِ الشَّبابِ وشَرحُه يَلذُّ طَعامِي أو يسُوغُ شَرابْ

من بين الموضوعات التي كتب فيها ابن خميس الحسين إلى الشباب والبكاء عليه، وهذا أمر طبيعي لأن الشباب هو رمز القوة، والنماء والعطاء والحيوية.

6- ابن عصـام:

التقاه العبدري في تلمسان، حيث كان جارا لابن خميس " وهو رجل متنقل حيي متعفف له حظ من اللغة ويقرض من الشعر، ما لا بأس به، وكان جار لأبي عبد الله ابن خميس"[3] كان شاعرا يتقن أفانين اللغة، فمن شعره قوله (البحر الكامل)[4]:

قلْ الذي سمَّى الهذَاة أُولَى النُّهى حُمرًا لأنَّ سَلبَ الهُدى والمعْرفَة

فغَدَا يرجِعُ الإعتِزالَ جَهَالَة ويَروقُه زورُ الضّلال وزُخرفُه

الحقُّ أبْلجٌ واضحٌ لكنَّه يغْشَى عُيونَ أولَى الضَّلالَة والسّفه

---

(1) يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، 39/1.

(2) المصدر نفسه، 41/1.

(3) العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، ص43.

(4) المصدر نفسه، ص44.

ذكر العبدري في رحلته جملة من أشعار ابن عصام لكن ارتأينا أخذ مقطوعة صغيرة من شعره، نتبيّن من خلالها قدرة الرّجل على ركوب بحور الشعر، فلم نكثر ولم نطيل.

7- محمّد بن النّجار:

اشتهر في العلوم النقلية، والعقلية، قال عنه القلصادي "شيخنا الفقيه الإمام العلامة المتفنن أبو عبد الله محمد بن النّجار، كانت له مشاركة في العلوم النقلية والعقلية"[1].

حضر القلصادي في مجلسه، وأفاد منه في علوم كثيرة منها "تفسير الكتاب العزيز وبعض كتب الإرشاد، لإمام الحرمين، والمنهج للبيضاوي، والبرهانية للسلابجي، والجمل للخوجي، وتلخيص المفتاح غير مرة، وبعض الخفاف وشيئا من المدونة"[2] فقد عرف باتساع معارفه.

8- ابن مرزوق الحفيـد:

يعدّ ابن مرزوق، من أكبر علماء تلمسان، ذاع صيته في الآفاق وعرف بعلمه واشتهر، تحدث عنه القلصادي في رحلته فقال هو: "أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي، حل كنف العلم والعلاء، وجلّ قدره في الجلة الفضلاء، قطع الليالي ساهرا وقطف من العلم أزاهر، فأثمر وأورق، وغرب، وشرق حتى توغل في فنون العلم واستغرق، إلى أن طلع على الأبصار هلالا، لأن المغرب مطلعه، وسما في النفوس موضعه وموقعه، فلا عليك أن ترى أحسن من لقائه، ولا أسهل من إلقائه لقي الشيوخ الأكابر، وبقي حمده متعرف من بطون الكتب وألسنة الأقلام، وأفواه المحابر"[3] أعتبر ابن مرزوق من شيوخ العلم في تلمسان، ومن أبرز من لقيهم القلصادي في رحلته ويبدو أنّ هذا الأخير قد أعجب بهذا العالم الجليل فذكره مادحا إيّاه واصفا له بمجموعة من المحسنات التي زينت خصال هذا الرجل، كان متقنا في إلقائه، عارفا بأصول الكتاب والسنة عالما جليلا يشهد له كل من لقيه،" كان رضي الله عنه من رجال الدنيا والآخرة، وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلا، ونهارا من صلاة وقراءة قرآن، وتدريس علم وفتيا وتصنيف، وكانت له أوراد معلومة، تعضدها

---

[1] أبو الحسن علي القلصادي، رحلة القلصادي، ص102.

[2] المصدر نفسه، ص102.

[3] علي القلصادي، رحلة القلصادي، ص96.

الرواية، ونباهة ...وقد حضر السلطان جنازته[1] عرف ابن مرزوق بمزاياه الحميدة التي تدلّ على قدرته فقد كان رجلا نبيها، وعند وفاته حضر السلطان جنازته وهذا دليل اهتمام السلاطين الزّيانيين بالعلماء وتقديرهم للعلم.

له مؤلفات عديدة في علم الحديث أهمها:"كتاب أنوار الدراري في مكررات البخاري"[2] وله شرح لكتاب الجامع الصحيح للبخاري أسماه " المتجر الربيح والمسعى الرجيح والمرحب الفسيح" [3]

9- الثغري التلمساني:

شخصية تلمسانية، ترجم له أدباء عصره، وغيرهم، قال عنه ابن مريم في بستانه هو "محمد بن يوسف الفقيه الإمام العالم العلامة الأديب الأريب، الكاتب أبي عبد الله أخذ عن الإمام الشريف التلمساني، وغيره"[4] أديب فقيه أخذ عن أئمة عصره اشتهر بمولدياته، التي كان يلقيها بين يدي سلاطين بني زيان "فقد أبدع في المولديات عندما رفعه إلى حضرته العليا السلطان أبو تاشفين في أول مولد أقامه، صدر الثغري، مادحا للسلطان أبو تاشفين ولوالده ومعزيا له به"[5].

وكان دائما ما يترأّس حلباته يوم الاحتفال بمولد المصطفى صلى الله عليه وسلم، وله في ذلك العديد من القصائد في مدحه صلى الله عليه وسلم، وكان ينتهي من مدح النبي الى مدح الخليفة، مثل قوله(البحر الكامل):[6]

يا وارِثَ الخُلفاءِ في المُلْكِ الذي سَامَى به كلُّ المُلُوكِ وبَاهَى

يُهنّيك بل يُهنِّي خلافتَك التي بَلغَت بسَعْدِك سَوْلَها ومُنَاهَا

عُرف الثغري بقصائده المولدية التي تبدأ بمدح النبي لتنتهي إلى مدح الخليفة.

---

[1] المصدر السابق، ص96، 97.

[2] التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج في تطريز الديباج، اشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهدامة، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس، ط1، (د. ت)، ص507.

[3] محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدسي، القاهرة، (د. ط)، (د. ت)، 50/7.

[4] ابن مريم البستاني، في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص222، 223.

[5] التنسي، تاريخ بني زيان، ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في شرف بني زيان، ص187.

[6] المصدر نفسه، ص139.

10- التنسي:

من أشهر أعلام تلمسان "محمّد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني الفقيه الجليل الحافظ الأديب، المطلع، كان من أكبر علماء تلمسان، الأجلة، ومحقيقيها أخذ عن الإمام العلّامة أبي الفضل محمد ابن مرزوق الحفيد والإمام العالم أبي الفضل ابن الإمام، والإمام قاسم العقباني، والإمام الأصولي محمد بن النّجار، والولي الصالح ابراهيم التازي والإمام ابن العباس"[1].

تمكّن من علوم مختلفة على رأسها الأدب "فوصفه أحمد بن داوود الأندلسي بشيخنا بقية الحفاظ وقدوة الأدباء"[2] اشتهر بعلمه الغزير، ومصنفاته الجليلة، التي استفاد منها الخلف بعده.

"فمن مؤلفاته نظم الدّر والعقيان، في دولة آل زيان، وتأليف في الضبط أي في رسم الخزاز سماه الطّراز، وله راح الأرواح، فيما قاله أبو حمو وقيل فيه من الأمداح، الجواب المطول في قضية يهود توات"[3] أضحت كتاباته منارة لأهل وطلبة العلم، ومصادر أساسية، يستعين بها الباحث وبخاصة لمن أراد الاطلاع على دولة بني زيان في عصره.

11- ابن مريم:

يعدّ من أصحاب المؤلفات التي بقيت خالدة على مرّ الزمن، وأصبحنا نرجع إليها لمعرفة الصالحين وأهل العلم:" أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمر الشهير بابن مريم المليتي أصلا التلمساني"[4] أحد أقطاب العلم بتلمسان له مؤلف بعنوان "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" وهو من أعظم المؤلفات في تراجم العلماء والسادات"[5] وهو عبارة عن سير للعلماء وحكاياتهم ومؤلفاتهم في مختلف المجالات الفه خلال القرن الثامن للهجرة.

وقد ذكرنا البعض من هؤلاء العلماء ولمعرفة المزيد فقد ورد ذكرهم جملة وتفصيلا في كتاب البستان لابن مريم.

---

[1] ابن مريم البستان، في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، ص248.

[2] المصدر نفسه، ص248.

[3] المصدر نفسه، ص248، 249.

[4] ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، ص4.

[5] المصدر نفسه، ص4.

خاتمـــــــة

تعدّ تلمسان، من المدن العريقة الضاربة بجذورها في عمق التاريخ، عرفت عدّة حضارات فكانت قاعدة لملكها ومركزا من مراكز استقرارها، فهذه المدينة لها ماضيها، ولها وزنها الثقيل بين الحواضر الإسلامية، اتسعت أقطارها على مرّ العصور فتطورت عبر الزمن لتأخذ في الأخير شكلها المتميّز الذي عرفت به، فمن خلال البحث والتقصّي عن هذه المدينة توصلت إلى مجموعة من النتائج منها:

– إنّ تلمسان مدينة عريقة، قديمة قدم الإنسان نفسه، فهناك من يدّعي أنّها ذكرت في القرآن في قصة سيّدنا الخضر، وهناك من ينفي هذا الادعاء، ولعلّ معالمها الكبرى، ورموزها الشامخة، تدل على عظمة الشعوب، تحكمها مبادئ وقيم هذا الدين السميح، بعد أن كانت فيما قبل مدينة بربرية خالصة.

– تعدّ من أهم المدن التي استقطبت الرّحالة الذين جابوا بقاع الأرض، فقدموا صورة عن هذه المدينة ومعالمها الكبرى وموقعها، ومن استقر بها.

– كانت تلمسان مدينة أزليّة لها سور حصين، ثمّ تطورت عبر الزمن، وتوسعت، وأصبحت تحتوي على مجموعة من المنشآت، والتي عبّرت عن حضارتها مثل الحمامات والأسواق والمدارس والجوامع...كما تعدّ هذه المدينة مكمنا للخيرات القيّمة الوفيرة، وذلك لما تحتويه، من أنهار وغابات، ومساحات خضراء تدعم المدينة بالمرافق الضرورية للحياة، ثمّ تحولت إلى مدينة إسلامية مع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، فكان أبو المهاجر دينار أول فاتح وطئت قدماه المدينة، حتى إنّها سميت بعيون أبو المهاجر.

–استوطنت المنطقة، مجموعة من الدويلات حيث جعلت منها قاعدة ومركزا لحكمها، فعرفت حكم الأدارسة الذين بقوا فيها مدة معتبرة من الزمن، ثمّ لم تكن بمعزل عن الصراعات والفتن التي كانت واقعة بين الأمويين والفاطميين، فعانت من هذا الصراع طويلا، فكانت تارة للأمويين وأخرى للفاطميين، لتؤول فيما بعد إلى المرابطين، وبعد انتهاء وسقوط دولتهم آلت المدينة إلى الموحدين، بحيث كانت كلّ دولة تقوم على أنقاض الدولة السابقة لها، هكذا حتى وصلت تلمسان إلى الدولة الزّيانية التي تمكّنت من بناء صرحها الحضاري على أنقاض الدولة الموحدية، فعلى الرغم من الصراع والحروب والحصارات التي عانت منها الدولة الزّيانية مع جارتها الحفصية بالمغرب الأدنى والمرينية

بالمغرب الأقصى، إلاّ أنّ هذا لم يمنعها من الوصول إلى الانتعاش، والرقي الثقافي فكانت بذلك فترة العصر الوسيط مرحلة جدّ مهمّة في حياة المدينة، أو ما يعرف بالمرحلة الذهبية.

– استطاعت تلمسان في عهد الزّيانيين أن تكون دولة حضارية لها قيمتها، فنشأت هذه الدولة بصنع رجل سياسي محنك استطاع أن يأخذ الإمارة من الموحدين، ويجعل من تلمسان قاعدة لملكه، وهو يغمراسن بن زيان، الذي كان له الفضل الكبير في نشوء وبروز الدولة الزّيانية التي كانت تلمسان عاصمة لها، بالإضافة إلى سلاطين الدولة الزّيانية الآخرين، الذين كان لهم الفضل في توسع وانتشار ونهضة الدولة الزّيانية حتى غدت المدينة أحد أهم الحواضر الإسلامية تضاهي فاس والقيروان، ولعلّ ما ساعد على انعاش المنطقة، وتطوّرها بشكل ملفت للنظر: هم السلاطين الزّيانيين الذين سعوا جاهدين إلى الجعل من هذه المدينة أحد أهم المعالم الحضارية الكبرى التي تميّزت بكونها مدينة ثقافية، دلّت عليها العناصر المختلفة للثقافة مثل: اهتمام السلاطين بليلة المصطفى عزّ وجلّ، والتحضير لها، والاحتفال بها في أبهة كبيرة من الترف، حتى الوصول إلى درجة المبالغة الشديدة في الاحتفال، إلى جانب اهتمام السلاطين بالعلم والعلماء، فقرّبوا إلى بلاطهم أهل العلم وأكرموا مثواهم، وأغدقوا عليهم العطاء، فكانوا بذلك من المنشطين للعلم والتعليم بالمدينة فابتنوا المدارس تكريما، وتبجيلا للعلماء، وسعيا منهم على إرساء قواعد العلم في بلادنا، فمن السلاطين من جلس على الحصير تواضعا، وذلك قمة النبل والسعي لتطوير المدينة.

– تلمسان مدينة استقطبت عديد من العلماء، فوفد إليها القراء والطلبة من كلّ حدب وصوب، وظهرت بها المراكز التعليمية من مدارس ومساجد وزوايا، لعلّ هذه المعالم عبرت عن الحضارة والثقافة التي كانت تسري في تلمسان أيام الأسرة الزّيانية الطويلة العمر، فتخرج بها جملة من العلماء، وعرفت في مشارق الأرض ومغاربها بقوتها السياسية والثقافية التي مكّنتها من الوصول إلى قمّة الحضارة، حتّى غدت عاصمة للثقافة في ذلك العصر، وهذا ما دلّت عليه الكتب النثرية المختلفة، التي استطاعت الإلمام بكلّ ما يخص المدينة من: سياسة وثقافة وأوصاف.

– تعدُّ فترة العصر الوسيط فترة مهمّة في تاريخ تلمسان، وصلت فيه المدينة إلى أوجّها وتمكنت من رفع اسمها بين أقطار المغرب الإسلامي، وهذا بفضل جهود سلاطين الدولة الزّيانية الذين سعوا إلى جعلها مركزا حضاريا وثقافيا له صيته في المعمورة، لكن هذا لا ينفي الواقع المرير للدولة الزّيانية التي

تظافرت عليها مجموعة من العوامل عجّلت في سقوطها، وإن بقيت هذه الدولة مدّة طويلة من الزمن إلّا أنّها قد انهارت وهوت، وزال حكمها، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى ضعف الأسرة الحاكمة، والصراع بين أفرادها فكان ذلك سبب أساسي في انكسار شوكتها داخليا، مما وجه أنظار المستعمر إليها فتدخل بذلك العنصر الخارجي للسيطرة على هذه الدولة، وأصبحت الدولة الزّيانية في أواخر حكمها تأن تحت خطرين هددا كيانها، وهما الخطر الإسباني، والعثماني، فآلت فيما بعد إلى حكم الدولة العثمانية وأصبحت قطبا من أقطاب الحكم التركي الذي بقي في الجزائر ردحا من الزمن.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم:

الآية (18) من سورة التوبة برواية ورش.

المصادر:

1. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، صور للطباعة و الوراقة، الرباط،(د. ط)، 1972.
2. ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية بور سعيد (مصر)، ط1، 2001.
3. ابن الحاج النميري، فيض العباب، وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة من قسنطينة إلى الزاب، دراسة وإعداد، محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط1، 1990.
4. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000.
5. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: محمد عبد القادر خريسات، عصام مصطفى هزايمية، يوسف أحمد ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، (د. ط)، (د. ت).
6. ابن مريم البتسان، في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله: محمد بن أبي شنب، الجزائر، (د، ط)، 1908.
7. ابن منظور الافريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د. ط)، (د. ت).
8. أبو البقاء البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق تح: الحسن السائح، صندوق إحياء التراث العربي، مطبعة فضالة الغرب، (د.ط) (د.ت).
9. أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، رحلة القلصادي، تح، محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية، تونس، (د. ط)، 1978.
10. أبو القاسم ابن حوقل النصّيبي، صورة الأرض، دار صادر، بيروت، ط2، 1937.

11. أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف لرجال السلف، الجزائر، مطبعة فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906.
12. أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مزين، المطبعة الملكية، الرباط، (د. ط)، 1962.
13. أحمد بن خالد النّاصري، الاستقصاء لأنهار دول المغرب الأقصى الدولة المرينية، تح: جعفر الناصري، ومحمد الناصري: الدار البيضاء، المغرب، (د. ط)، 1997.
14. أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأنهار دول المغرب الأقصى الدولة المرينية، تح: جعفر الناصري، ومحمد الناصري: الدار البيضاء، المغرب، (د. ط)، 1997.
15. أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفخ الطيب من عصن الأندلس الرطيب، تح: احسان عباس، دار صادر بيروت، (د. ط)، (د، ت)، 513/6.
16. التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج في تطريز الديباج، اشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهدامة، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس، ط1، (د. ت).
17. الحال الموشيّه في أخبار الدولة المركشية لؤلف مجهول تح: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979.
18. الحسن بن محمد الوزان القاسي المعروف بليون الافريقي، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2،ج2 1982.
19. الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، (د.ط) (د.ت)، 1ج.
20. شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (د. ط)، (د.ت).
21. عبد الرحمن محمد الحضرمي الاشبيلي، رحلة ابن خلدون عارضها بأصولها وعلة حواشيها، محمد بن تاويت الطنجي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
22. محمد أبي بكر عبد القادر الرازي، معجم الصحاح، تح: أحمد إبراهيم زهوة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د. ط)، 2005.

23. محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، تح. سعيد بوفلاقة، منشورات بونة، عنابة، 2007.
24. محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدسي، القاهرة، (د. ط)، (د. ت)، 50/7.
25. محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بن زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح: محمود آغا بو عياد، موفم للنشر، الجزائر، (د. ط)، 2011.
26. محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا ابي الحسن، تح: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،ط1، 1981.
27. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى حسن الزيات وآخرون، مجمع اللغة العربية القاهرة، ط4، 2004، ص 409.
28. مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر و تعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق (د.ط) (د.ت).
29. يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، مطبعة بير فونتانا الشرقية الجزائر، (د. ط)، 1909.

المراجع:

1. إسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د. ط)، 1984.
2. بوزيان الدراجي، أدباء وشعراء من تلمسان، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، (د، ط)، 2011.
3. تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز في الحركة الوطنية ثورة اول نوفمبر ،1954 طبعة خاصة، وزارة المجاهدين.
4. شوقي شيف، عصر الدول والإمارات الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1990.

5. عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، المسجد رمز الصمود والتحدي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 2002، ص95.
6. عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال افريقيا من الفتح الاسلامي الى نهاية الدولة الأغلبية، أحمد بن ميلاد، محمد ادريس، تقديم ومراجعة حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي،ط1، 1987.
7. عمار عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر والتوزيع، القبة(الجزائر)، 2002.
8. مبارك محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د. ط)، (د.ت).
9. محمد الهادي جاريش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائر للطباعة، (د.ط)، (د.ت).
10. محمد بن أحمد بن صالح الصالح، المسجد جامع وجماعة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2000.
11. محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د. ط)، 2011.
12. مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد للنشر، العراق (د. ط) (د.ت).
13. يحي الشامي، موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1993.

المجلات:

1. الأثر، مجلة الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد التاسع، ماي 2010.
2. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص، الملتقى الدولي الأول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيو ثقافية في المجتمع الجزائري.

الفهرس

مقدمة.....**أ-ج**

مدخل

I- مفاهيم عامة حول المدينة.....06

1-تعريف المدينة.....06

أ-لغة.....06

ب-اصطلاحا.....08

2-خصائص المدينة.....09

3-عوامل نشأة المدن.....09

4-المدن في المغرب.....11

II-تلمسان في أدب الرّحلة.....14

1-التعريف بتلمسان من خلال المعاجم.....14

2-تلمسان كما وصفها الرّحالة العرب.....16

أ-ابن حوقل.....16

ب-الإدريسي.....16

ج-مؤلف مجهول.....16

د-العبدري.....17

هـ-النميري.....18

و-البلوي.....18

ز-القلصادي.....20

ح-العُمري.....20

ط-الحسن الوزان.....21

الفصل الأول: النّاحية السياسية لتلمسان من خلال النثر

I-تلمسان من الفتح الى قيام الدولة الزيانيّة.....25

1-الفتح الاسلامي لتلمسان.....25

2-تلمسان في عهد الأدارسة.....26
3-الصراع الفاطمي الأموي على تلمسان.....28
4-تلمسان في العهد المرابطي.....30
5-تلمسان في العهد الموحدي.....32
II-الدولة الزّيانية.....34
1-أصول بني زيان.....34
2-توليهم الحكم.....37
3-يغمراسن بن زيان (المنشئ الأول للدولة الزّيانية) 41
4-بعض سلاطين الدولة الزّيانية وأبرزهم.....43
أ-عثمان بن يغمراسن بن زيان.....43
ب-أبو زيان محمد بن عثمان.....44
ج-أبو حمُّو موسى الأوّل.....45
د-أبو تاشفين الأوّل.....46
5-المظاهر السياسية لسلطة بني زيان.....47
6-أسباب سقوط الدولة الزّيانية.....49

الفصل الثاني: الناحية الثقافية لتلمسان من خلال النثر

I-نبذة عن الحياة الثقافية بتلمسان ومساهمة ملوك بني زيان في نشر الثقافة.....52
1-الحياة الثقافية بتلمسان.....52
2-مساهمة ملوك بني زيان في نشر الثقافة.....53
II-المولديات.....55
1-تعريف المولديات.....55
أ-لغة.....55
ب-اصطلاحا.....55
2-السلطان أبو حمُّو موسى الزّياني الثاني واحتفاله بليلة المولد النبوي الشريف.....57
أ-نبذة عن شخصية السلطان ابي حمُّو موسى الزّياني الثاني.....57
ب-احتفال السلطان أبي حمُّو موسى الزّياني بليلة المولد النبوي الشريف.....61

3-السلطان أبو تاشفين الثاني واحتفاله بليلة المولد النبوي الشريف.....64
أ-نبذة عن شخصية السلطان أبو تاشفين الثاني.....64
ب-احتفال أبو تاشفين بمولد النبوي الشريف.....65
III-المراكز التعليمية.....67
1-تعريف المسجد لغة واصطلاحا.....67
2-تعريف الزاوية لغة واصطلاحا.....69
3 -المدارس.....71
1-تعريف المدرسة.....71
أ-لغة.....71
ب-اصطلاحا.....72
2-أهم المدارس بتلمسان في العهد الزياني.....73
أ-مدرسة ابني الإمام.....73
ب-المدرسة التاشفينية.....74
ج-المدرسة اليعقوبية.....75
د-مدرسة العبّاد.....76
هـ-مدرسة سيدي الحلوي.....77
V-أعلام تلمسان.....78
1-أبو مدين شعيب.....79
2-ابنا الإمام.....80
3-ابن مرزوق الجدّ.....80
4-عفيف الدين التلمساني.....81
6-ابن عصام.....82
7-محمّد بن النّجار.....83
9-الثغري التلمساني.....84
10-التنسي.....85
11-ابن مريم.....85

خاتمة..... 88
قائمة المصادر والمراجع.....92